

## الفصل السادس

### المسيحيون وثورة ١٩١٩

توفى الزعيم مصطفى كامل ١٩٠٨ بعد أن أشعل روح الجهاد ضد الاستعمار الإنجليزي في نفوس المصريين، وكون رأيا عاما في بعض الدول الأوروبية ضد فظائع الاحتلال البريطاني لمصر، ويحسب له أنه وبعض معاصريه أضافوا عدة أدوات لتنمية الوعي لدى المصريين، وهى:

• الجامعة.

• المدارس الأهلية.

• الأحزاب.

• الصحافة الحزبية.

ويضاف إلى هذا إرسال المصريين أولادهم للتعلم فى أوروبا، فقد مكنهم السفر لأوروبا من التعرف إلى مفاهيم سياسية عصرية مثل: الديمقراطية، الليبرالية، الاشتراكية، الحرية السياسية، حكم القانون، العقد الاجتماعى، الدولة العلمانية، وغيرها من الأفكار التى تعلقوا بها ونقلوها لوطنهم، وحلموا بتحقيقها من أجل تحقيق النهضة، واللاحق بأوروبا.

كل هذا أدى إلى تراكم الوعي لدى المصريين بضرورة تحقيق الاستقلال باعتباره خطوة أساسية نحو المستقبل، وبسبب هذا الوعي تفجرت الثورة الوطنية العظمى عام ١٩١٩.

ولم يكن مفهوم الاستقلال مفهوما سياسيا فقط، بل كان مفهوما شاملا، لذلك وجدنا طلعت حرب ينادى ١٩١١ بضرورة إنشاء بنك وطنى يحقق الاستقلال الاقتصادى، ورأينا سيد درويش يحاول الوصول إلى موسيقى مصرية قبل نشوب ثورة ١٩١٩، ومحمد حسين هيكل يكتب روايته الأولى زينب لتكون أول رواية مصرية وعربية بالمعنى الحقيقي للكلمة ١٩١٠. ومحمد تيمور يؤلف أول مسرحيات مصرية خالصة، تعالج الواقع المصرى، من خلال شخصيات مصرية، دون اللجوء للاقتباس أو النقل من المسرح الأوروبى، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمود مختار الذى استلهم الفن المصرى القديم فى تماثيله الرائعة، محاولا الابتعاد عن تقليد فن النحت الأوروبى.

كان مصطفى كامل إذن، ومن حوله، ومن تلوه، هم خميرة ثورة ١٩١٩. والمهم أن المصريين الذين نما وعيهم رأوا أن من حق مصر أن تنال استقلالها، وأن هذا جزاء عادل لما قدمته لانجلترا من خدمات وتضحيات خلال الحرب العالمية الأولى، ولذلك فما إن ظهرت بوادر انتهاء الحرب حتى بدأ التفكير فى تكوين وفد للتحدث باسم مصر والمطالبة باستقلالها. والحقيقة أنه كانت هناك مشروعات متعددة

لتكوين الوفد لكن سعد زغلول فى النهاية هو الذى كون الوفد وضم معه فى البداية رجلين شهيرين، هما: على شعراوى، وعبد العزيز فهمى. ولن نكرر الأحداث المعروفة التى دارت فى اللقاء بينهم وبين المعتمد البريطانى، لكننا سننتقل لمابعدھا، فقد أبى مسيحيو مصر أن يغيبوا عن طلب استقلال البلاد، فاختاروا ثلاثة منهم لمقابلة سعد زغلول، هم: فخرى عبد النور، وويصا واصف، وتوفيق أندراوس. ليطلبوا منه ضم المسيحيين للوفد باعتبارهم شركاء فى الوطن، ومن حسن الحظ أن فخرى عبد النور سجل لنا هذا اللقاء بوصفه أحد الفرسان الثلاثة. يقول فخرى عبد النور:

«رحب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرا، وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى حضرنا من أجلها. ثم دار الحديث حول اختيار عضو أو أكثر من الأقباط فى الوفد وظن سعد أننا جئنا لمرشح الأستاذ ويصا فأعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح. إلا أن الأستاذ ويصا اعتذر لأن أعماله فى مصر كثيرة، وتحول دون سفره إلى باريس، كما أن ظروفه الخاصة لا تسمح له بذلك. وأذكر أنه حدث فى أثناء هذا الحديث أن تحمس الأستاذ توفيق أندراوس، وكان سعد باشا يشرح لنا أهداف الوفد، فقال معقبا على كلمة سعد باشا:

«إن الوطنية ليست حكرا على المسلمين وحدهم».

فسر سعد باشا وقبله على هذه الكلمة. وعاد الأستاذ توفيق فأكد أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة - المسلمين والأقباط - يعملان

بتفكير واحد، ورأى واحد، فيما يحقق مصلحتهما فى الحصول على الاستقلال.

وأخيراً أبلغنا سعد باشا أن المثقفين والوجهاء الأقباط انتدبونا - نحن الثلاثة - لنبلغه أن الشخص الحائز للصفات الكاملة لعضوية الوفد، سواء من وجهة الثقافة أو الثروة، أو الجاه، هو الأستاذ واصف بطرس غالى ثانياً أبناء المغفور له بطرس باشا غالى، فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار وأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته<sup>(١)</sup>.

منذ هذه اللحظة تغير الوضع وصار المسلمون والأقباط فى مصر كياناً واحداً. وقد أرسى سعد القاعدة التى سيتم التعامل على أساسها خلال حوارهِ مع جورج بك خياط حين سأله جورج:

- ما هو مركز الأقباط، وما هو مصيرهم بعد انضمام ممثليهم إلى الوفد؟ فأجابهُ سعد: اطمئن، إن للأقباط مالنا من الحقوق، وعليهم ما علينا من الواجبات، على قدم المساواة<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما ضم الوفد سينوت حنا بك عضو الجمعية التشريعية وجورج خياط بك من كبار أعيان أسيوط فى ديسمبر ١٩١٨.

وحين سافر الوفد إلى باريس كان فيه ثلاثة مسيحيين (واصف غالى، سينوت حنا، جورج خياط)، زادوا إلى أربعة بانضمام ويصا واصف إليهم بعد وصولهم إلى باريس. كما أن الوفد ضم إليه عدداً من المسيحيين

(١) فخرى عبد النور: مذكرات فخرى عبد النور، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٥ - ٤٧.

(٢) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٤٧.

ملحقين ومترجمين ، هم : عزيز منسى ، وجورج دومانى ، وكان معهم  
ويضا واصف إلا أنه ترك عمله فى الترجمة وانضم للوفد كما ذكرنا .  
وفى أبريل ١٩١٩ نظم الموظفون المصريون إضرابا عاما ، وكان من كبار  
الموظفين المسيحيين الذين شاركوا فى هذا الإضراب : صادق حنين بك  
(مدير إدارة وزارة الزراعة) الأساتذة سلامة بك ميخائيل ، والدكتور  
نجيب اسكندر (من وزارة الصحة<sup>(١)</sup>) .

وعاد سعد إلى مصر ، بعد حوالى عامين من الغياب ، احتفل المسيحيون  
بعودته مثلما احتفل به المسلمون ، ومن بين الجهات التى احتفلت به  
الجمعية الخيرية القبطية ، وجمعية ثمرة التوفيق القبطية ، وتبرع سعد  
للجمعية الخيرية بمئة جنيه لمساعدة الطلاب الفقراء ، وتبرع الشيخ محمد  
بخيت مفتى الديار المصرية - وكان فى صحبة الزعيم - للجمعية أيضا .  
ومن الحوادث ذات الدلالة أن حكمدار الغربية أطلق النار على  
المتظاهرين فقتل وأصاب منهم عددا غير قليل ، وتصادف أن اليوم التالى  
هو يوم عيد الفصح عند المسيحيين فأرسل فخرى عبد النور وواصف  
غالى وسينوت حنا وجورج خياط تلغرافا بأن الأقباط لا يتبادلون التهانى  
بالعيد احتجاجا على سفك الدماء وحزنا على الضحايا ، ونشر التلغراف  
فى صحيفة الأخبار وأجمع الأقباط على الحداد<sup>(٢)</sup> .

وشكل عدلى يكن الوزارة ، لكن سعدا لم يهادنه ، ورأى أنه ليس من  
حق عدلى أن يتفاوض مع الإنجليز باسم مصر ، لأن الشعب فوضه هو ،

(١) مذكرات فخرى عبد النور ، ص ٧١ .

(٢) مذكرات فخرى عبد النور ، ص ١٤١ .

وانضم الشعب مسلمين ومسيحيين إلى سعد، وقرر الزعيم زيارة الصعيد فى رحلة نهريّة، واستقل مركبا نيليا لكى يتمكن من الوقوف عند المدن الكبرى وعواصم المحافظات ليخاطب شعبه، لكن الوزارة وقفت لسعد بالمرصاد، وقررت منعه بكل السبل من النزول إلى الشاطى، وكان المسيحيون والمسلمون برغم كل التحديات يصلون إلى سفينة سعد بالقوارب لكى يبلغوه أنهم معه.

المحطة الوحيدة التى تمكنت من الرسو عليها، وهى عزبة البكوات: سينوت بك حنا، وبشرى حنا، وشارل حنا.

وفى ١٩٢٤ قام سعد بتشكيل وزارة الوفد الأولى، وذهب يعرض أسماء وزرائه على الملك فؤاد، وراح الملك يحصى الأسماء ثم قال لسعد:

– هناك غلط فى العدد. عدد الوزراء عشرة، والتقاليد أجمعت على أن يكون تسعة منهم مسلمون وقبطى واحد، وهؤلاء ثمانية مسلمون ومرقص حنا بك وزير الأشغال، وواصف غالى أفندى وزير الخارجية.

قال سعد: هذه وزارة ثورة لا وزارة تقاليد. عندما نفى زعماء الثورة إلى جزيرة سيشل، نفوا أربعة مسلمين واثنين من الأقباط. وعندما حكما على قادة الثورة بالإعدام حكما على أربعة أقباط وثلاثة مسلمين. وعندما كانوا يطلقون علينا الرصاص فى المظاهرات لم يراعوا النسبة بين الأقباط والمسلمين. ولهذا نحن لا نراعى النسبة اليوم «ورضخ الملك لرأى سعد ووقع المرسوم الملكى بتأليف الوزارة»<sup>(١)</sup>.

(١) مصطفى أمين، مقدمة مذكرات فخرى عبد النور، ص ١٣.

هذه هي الروح التي سادت المصريين خلال ثورة ١٩١٩ . ولا بد لكى نتعرف إلى تاريخ هذه الفترة أن نتعرف إلى أدوار بعض أقباط مصر.

## واصف غالى أول عضو فى الوفد المصرى

### ● البداية الصعبة

ظهر اسم واصف بطرس غالى على الساحة السياسية فى ظروف بالغة الصعوبة ، حيث قام شاب مسلم اسمه إبراهيم الوردانى باغتيال والده بطرس باشا غالى رئيس وزراء مصر ، وأظن أن المدخل الصحيح أن نبدأ بالوقوف أمام هذا الحادث لنبين الشخصية الحقيقية لهذا الرجل النبيل : واصف غالى باشا .

تبدأ قصة اغتيال بطرس غالى قبل حادث الاعتداء عليه بسنوات ، وبالتحديد عام ١٩٠٦ ، بعد وقوع حادثة دنشواى . فقد أصدر الرجل ، الذى كان يشغل منصب وزير الحقانية بالنيابة ، قرارا بتشكيل المحكمة المختصة لمحاكمة المتهمين على النحو التالى :

- بطرس غالى رئيسا .

وعضوية كل من :

- المستر هتر نائب المستشار القضائى .

- المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف .

- القائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بالجيش البريطانى .

- أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية .

ويمثل الادعاء إبراهيم الهلباوى.

وتولى السكرتارية عثمان مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية<sup>(١)</sup>.

وحكمت المحكمة على فلاحى دنشواى أحكاما قاسية. فلم يغفر الشعب المصرى لكل من شاركوا فى هذه المحكمة جرمهم أبدا، وسامهم بجلادى دنشواى. ووصلت الحدة فى التعامل مع هؤلاء الأعضاء أن ذهب مصطفى كامل ذات يوم لزيارة سعد زغلول فى بيته فوجد عنده أخاه أحمد فتحى زغلول عضو المحكمة، ومد أحمد فتحى يده لمصطفى ليصافحه، لكن مصطفى كامل رفض مصافحته، وقال له: «أنا لا أصافح جلاد دنشواى».

كان موقف المصريين إذن موجها لكل من شارك فى المحاكمة مسلما كان أو مسيحيا، وكان من الطبيعى أن ينسحب هذا الغضب على الرجل الذى شكل المحكمة وتولى رئاستها بطرس غالى.

وقفزت الأقدار ببطرس غالى سنة ١٩٠٨ إلى منصب رئيس نظار مصر، ولو كانت مصر بلدا طائفية لما وصل الرجل أبدا إلى هذا المنصب. وكان سبب اختياره كما يقول الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «تاريخ الوزارات المصرية» أنه «ظل طوال عمله خلال الخمس عشرة سنة السابقة حريصا على إبقاء حسن الروابط مع الاحتلال ومع القصر بالرغم من الاختلاف بين الجانبين»<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٩٤.

(٢) د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٥١.

وهذا يعنى أن بطرس غالى كان كل همه السادة لا الشعب، وأنه لم يتعلم من دنشواى. ولهذا وجدناه حين تولى تشكيل الوزارة يواصل أفعاله التى تجلب غضب الشعب عليه حيث أعادت هيئة النظارة إحياء قوانين القمع وأهمها قانون المطبوعات الصادر فى نوفمبر ١٨٨١، وكان قد بطل استخدامه منذ عام ١٨٩٤ فأعيد إلى الحياة على عهد تلك النظارة (٢٥ مارس ١٩٠٩) وهو قانون يقيد حرية الصحافة إلى حد كبير<sup>(١)</sup>.

ولم يمر هذا القانون بسهولة، فقد تصدى له الشيخ عبدالعزيز جاويش فى صحيفة اللواء فى معركة شرسة، انتهت بسجن جاويش فاعتبره الناس بطلا، لأنه واجه بطرس غالى الذى يريد إسكات الأصوات.

وقبل إعادة هذا القانون سيئ السمعة قام بطرس غالى بشيء آخر مستفز. إذ جعل محاكمات الصحفيين أمام محكمة الجنايات بدلا من محاكمتهم أمام محكمة الجنح. لكن نزوة أفعال بطرس غالى المستفزة كانت عام ١٩٠٩، فيما يسمى بمعركة مد امتياز قناة السويس.

كان امتياز قناة السويس ينتهى عام ١٩٦٨. وفكر الإنجليز فى إحكام قبضتهم على هذا المرفق الحيوى لأطول فترة ممكنة فعرضوا مد الامتياز لمدة أربعين سنة أخرى مقابل أربعة ملايين جنيه يدفعونها تقسيطا لمصر، وكانت النية أن توافق الوزارة لولا أن وقعت نسخة من الاتفاقية

(١) تاريخ الوزارات المصرية، ص ١٥٤.

فى يد محمد فريد رئيس الحزب الوطنى فقام بنشرها فكانت فضيحة ،  
وتصدت الصحافة لهذه الاتفاقية ، وقام طلعت حرب بتأليف كتاب  
كامل يبين فيه خطورة هذه الاتفاقية ، والخسائر التى ستعود على مصر  
بسببها ، وأحيل الأمر لمجلس شورى النواب برئاسة الأمير حسين كامل  
فرفضه المجلس بالإجماع ، عدا صوت واحد للنائب مرقص سميكة .  
نتيجة لكل هذه الممارسات قرر أحد الشباب الوطنيين  
(إبراهيم الوردانى) اغتيال بطرس غالى رئيس وزراء مصر ، ولا شك أن  
الاغتيال ليس حلاً لمشاكل الوطن لكن هذا ما حدث .  
وحاول الإنجليز استغلال الحادث ليجعلوا منه دليلاً على الطائفية ،  
وهنا برز واصف غالى ليتصدى لهذه المحاولات ، مؤكداً أن ما حدث  
مجرد حادث فردى لا علاقة له بالطائفية ، وحين قال له سفير بريطانيا  
فى باريس :

– كيف تضع يدك فى يد من قتلوا أبىك؟

قال : هذا خير لى من أن أضع يدى فى يد من قتلوا وطنى .»

وقد انساق بعض المصريين وراء الإنجليز فى اعتبار الحادث دليلاً  
على الطائفية الموجهة للمسيحيين ، ونادوا بعقد مؤتمر قبلى فى أسيوط  
لناقشة مشاكل المسيحيين المصريين ، وتقرر عقد المؤتمر فى ٦ مارس  
١٩١١ بمدينة أسيوط . وهنا ظهر الموقف الثانى لواصل غالى ، فقد هاجم  
المؤتمر قبل انعقاده ، واعتبره تكريساً للطائفية ، ورفض المشاركة فيه .  
مؤكداً أن مصر وطن للمسلمين والمسيحيين معاً .

هذان الموقفان يبينان معدن هذا الرجل النفيس، ويتيحان لنا أن نتابع الحديث عنه.

### ● سيرة حياة

ونقترب من واصف غالى لتتعرف إليه.

ولد واصف غالى فى حى الفجالة من أحياء القاهرة فى ١٤ أبريل عام ١٨٧٨، وتعلم فى مدرسة الجزويت، ولأن والده ينتمى للأرستقراطية المصرية فقد أرسله للخدمة على ليسانس الحقوق من فرنسا، فحصل على درجة الليسانس عام ١٩٠٤.

أتاحت له الإقامة فى فرنسا أن يعرف الفرنسية كواحد من أبنائها، كما تزوج بفتاة فرنسية، لكن أهم ما تعلمه فى فرنسا كان طريقة التفكير المنفتحة، وأهمية الحرية فى حياة الشعوب والأفراد. كما أن بعده عن الوطن جعل حب هذا الوطن يشتعل فى قلبه.

عمل واصف غالى بعد عودته بالخاصة الملكية، ثم تركها للعمل بالمحاماة، ولم يكن العمل بالمحاماة مما يليق بأبناء الطبقة العليا فى ذلك الوقت، حتى إن والد محمد فريد كان يبكى حين قرر ابنه الاشتغال بالمحاماة. ولا شك أن دخول واصف غالى إلى ساحة المحاماة آنئذ يعتبر دلالة على جرأته واتساع أفقه.

ولأنه كان متزوجا من فرنسية، وكان دائم التنقل بين فرنسا ومصر، فقد منعه الحرب العالمية الأولى من العودة إلى أرض الوطن، فبقى فى فرنسا إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وبعد انتهاء الحرب هب المصريون

يطالبون بالاستقلال، وكونوا الوفد المصرى، واختار الأخوة المسيحيون واصف غالى عضوا فى الوفد.

بعد سفر الوفد لباريس انضم واصف غالى لبقية زملائه للمطالبة بحقوق وطنه، ولأنه يتقن الفرنسية، ويعرف طرق الاتصال بالإعلام فى فرنسا فقد اختاره سعد ليكون مسؤولا عن الإعلام. فقام الرجل بالمهمة على أكمل وجه.

لم يلبث أن ظهر بين رجال الوفد اتجاهاان:

• اتجاه يتزعمه سعد زغلول ويتمسك بالاستقلال التام، وعدم التهاون فى المطالبة بالحقوق المصرية.

• اتجاه برجماتى يضم عبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعلى شعراوى ويؤازرهم من الخلف عدلى يكن باشا صهر الأسرة العلوية، ويرى أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ومن الأفضل لمصر أن تحصل على ما يمكن الحصول عليه، بدلا من ألا تحصل على أى شئ.

وانقسم الوفد قسمين، وقرر واصف غالى أن ينضم لسعد فى موقفه المتشبهت بالاستقلال. وعاد الآخرون إلى مصر تاركين سعدا ومن معه فى باريس، ولم يعد واصف غالى إلى مصر إلا مع زعيم الثورة المتمسك باستقلال بلاده.

### • فى قيادة الوفد

لم يبق سعد طويلا فى مصر بعد عودته من باريس، فسرعان ما نفاه الإنجليز مرة ثانية فى ديسمبر ١٩٢١. وقام أعضاء الوفد بتشكيل مجموعة

لقيادة الوفد تتكون من: حمد الباسل، على ماهر، جورج خياط، ويصا واصف، واصف غالى، محمد علوى الجزار، مراد الشريعى، مرقص حنا، على الشمسى<sup>(١)</sup>.

بعد أيام من تولى هذه المجموعة قيادة الوفد قام الإنجليز فى ٢٤ من يناير ١٩٢١ بالقبض على أعضاء هذه الطبقة، ثم أفرجوا عنهم، ثم قبضوا عليهم مرة ثانية. كأنها لعبة القط والقار.

فى هذه الأثناء واجه الوفد الإنجليز بسلاح مبتكر تماما لم يخطر لهم على بال، وهو سلاح المقاومة السلبية. وأصدر بيانا فى ٢٣ يناير ١٩٢٢ بتنظيم هذه المقاومة وجعلها على نوعين:

١ - عدم التعاون.

٢ - المقاطعة.

ويوضح الرافعى المقصود بعدم التعاون فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» بأنه:

- عدم التعاون فيما يتعلق بعلاقات الأفراد ويقتضى قطع العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز.

- عدم التعاون السياسى، ومن أجلى مظاهره امتناع السياسيين المصريين عن تشكيل الوزارة مادامت السياسة الحاضرة قائمة.

أما المقاطعة فيقصد بها:

١ - مقاطعة البنوك الإنجليزية.

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٤٤.

٢ - مقاطعة السفن.

٣ - مقاطعة شركات التأمين الإنجليزية.

٤ - مقاطعة التجارة<sup>(١)</sup>.

بعد صدور بيان بهذه التوجيهات للشعب جن جنون الإنجليز فأمروا باعتقال كل من وقع عليه. ولأن السلطات لم تجد ما يدين هؤلاء المقبوض عليهم فقد اضطرت للإفراج عنهم في ٢٧ يناير ١٩٢٢.

### ● الحكم بالإعدام

تلاحقت الأحداث بعد نفي الزعيم، ففي فبراير ١٩٢٢ صدر تصريح ٢٨ فبراير الذى يمنح مصر استقلالاً منقوصاً، وكان من الطبيعى أن يعترض الوفد عليه، وعيّن السلطان فؤاد الذى صار ملكاً بعد هذا التصريح، عبد الخالق ثروت رئيساً للوزراء، وشكل ثروت لجنة لصياغة دستور فى البلاد، إلا أنه فى الوقت نفسه أدار شؤون البلاد بطريقة ديكتاتورية، فأغلق الصحف، واضطهد المعارضة، ثم قبضت السلطات الإنجليزية على اللجنة المركزية للوفد مرة ثانية، ومن بينهم واصف غالى، فى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ وقدمتهم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية إنجليزية، وهنا ظهر معدن الرجال المصريين العظام، فقد رفضوا كل إجراءات المحاكمة، ورفضوا الرد على القضاة، وقالوا لهم جملة شهيرة صارت مثلاً «لكم أن تحكموا علينا لكن ليس لكم أن تحاكمونا»، والأهم من

(١) عبد الرحمن الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ج ١،

ذلك أنهم احتجوا على المحكمة بأنها غير ذات اختصاص ، فبعد إعلان استقلال مصر (طبقا لتصريح ٢٨ فبراير) لا يحق للإنجليز أن يحاكموا المصريين المدنيين أمام محاكمهم العسكرية. وبرغم هذا فقد انتهى الأمر بالحكم على الجميع بالإعدام، لكن الرجال الشجعان المؤمنين بوطنهم لم يهتزوا. فأبدلت القيادة البريطانية الحكم إلى السجن سبع سنوات وتغريم كل منهم ٥٠٠ جنيه، ثم أفرجت عنهم فى ١٤ مايو ١٩٢٣. وهكذا أثبت واصف غالى أنه لا يبالى بالموت فى سبيل وطنه<sup>(١)</sup>.

### ● معالى الوزير

حين شكل سعد وزارته الوحيدة عام ١٩٢٤ كان من الطبيعى أن يختار واصف غالى وزيرا للخارجية، فالرجل يجيد أكثر من لغة، وعاش فى أوروبا طويلا، ولا يعانى من الإحساس بالنقص أمام الأوروبيين، والأهم من هذا كله أنه وطنى من الطراز الأول.

ويقول الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «الخارجية المصرية»:

«وقد حظى واصف بطرس غالى بالعدد الأكبر من مرات تولى الوزارة، فقد تولاه فى جميع وزارات الوفد التى تشكلت خلال تلك الحقبة، وكانت خمس وزارات، وزارة سعد زغلول ووزارات مصطفى النحاس الأربع<sup>(٢)</sup>».

وجاء فى ملفه بوزارة الخارجية:

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٥٥.

(٢) د. يونان لبيب رزق: الخارجية المصرية ١٨٢٦ - ١٩٣٧، القاهرة، ١٩٨٩،

«مثقّف ثقافة فرنسية عالية وشاعر وكاتب متميز بالعربية. أصبح في عام ١٩١٩ ممثلاً غير رسمي للمصالح المصرية في باريس، انضم لوفد زغلول... شخصية ذات تأثير بالغ في الحياة السياسية المصرية، وعلى درجة عالية جداً من الذكاء، وتؤدى اهتماماته الثقافية المتعددة إلى اعتدال توجهاته السياسية، متزوج من فرنسية ويؤدى تأثيرها عليه إلى توجهات معادية للإنجليز<sup>(١)</sup>».

وقد قام واصف غالى بدور كبير في انضمام مصر إلى عصبة الأمم، وخاض مفاوضات طويلة امتدت من ١٩٣٠ - ١٩٣٧، كما كان له دور بارز في التصدي لمخططات الصهاينة في فلسطين بعد انضمام مصر للعصبة فقد رفض تقسيم فلسطين، وحدد أسباب ذلك في:

- ١ - أن التقسيم يناهى حقوق العرب الطبيعية المقدسة.
- ٢ - أنه يتنافى والعهد الذى قطعه بريطانيا للشريف حسين في بداية الحرب.
- ٣ - أن وعد بلفور غير موجب لبريطانيا، مادام العرب لا يقبلونه.
- ٤ - أن التقسيم لا يحل مسألة السلام فى فلسطين.
- ٥ - أنه لا يحل المشكلة اليهودية العالمية.
- ٦ - أنه يخلق دويلات مصطنعة غير صالحة للحياة بين الدول.
- ٧ - أنه ينشئ دولة على أساس الدين، من أقوام مختلفى الجنسية
- ٨ - أن مصر لا تأمن قيام دولة يهودية مصطنعة من خليط جنسيات مختلفة بجوارها.

(١) الخارجية المصرية، ص ١٠٢.

واقترح الوفد المصرى برئاسة واصف غالى حلا مؤداه: أن تعقد بريطانيا معاهدة مع فلسطين تكفل لها استقلالها، على غرار المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع غيرها من الأقطار العربية، وتضمن المعاهدة لبريطانيا مصالحها وللأقلية اليهودية أيضا مصالحها، وتحدد فى المعاهدة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بنسبة معينة، كما تحدد حق اليهود فى امتلاك الأراضى<sup>(١)</sup>.

هذه هى الخطوط العريضة لكفاح واصف غالى الذى رفض اعتبار اغتيال والده طائفية من المسلمين ضد إخوانهم المسيحيين، ورفض مؤتمر الأقباط فى أسسيوط لشبهة الطائفية، وشارك فى الصف الأول لثورة ١٩١٩، وتعرض للحكم عليه بالإعدام، ثم صار صوتها فى المحافل الدولية خمس مرات.

### عريان سعد حتى لا تكون فتنة

فى مارس ١٩١٩ قام الإنجليز بنفى سعد زغلول، وبعد يوم واحد من النفى اشتعلت الإضرابات فى مصر، ومن أقوى الإضرابات كان إضراب طلاب المدارس العليا، ومن بين الطلاب الذين شاركوا فى إضراب مدرسة الطب كان طالب ريفى متحمس اسمه عريان يوسف سعد.

لم يلبث هذا الشاب أن وجد نفسه مقبوضا عليه فى القلعة ضمن حوالى مائة وخمسين مواطنا مصريا شاركوا فى الاحتجاج على نفى سعد، وطالبوا باستقلال مصر.

(١) الخارجية المصرية، ص ٢٢٤.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن عريان يوسف سعد نتوقف لحظة  
لنتعرف إليه ..

ولد عريان يوسف سعد في ٢٥ مايو عام ١٨٩٩ ، في ميت محسن  
من أعمال ميت غمر ، وكان والده يوسف بك سعد ناظرا للوقف القبطي  
في ميت غمر. وواصل عريان تعليمه الثانوى بتفوق مما أهله لدخول كلية  
الطب ، وحين شبت الثورة كان طالبا في السنة الثانية. وباندفاع الشباب  
خاض غمار العمل الوطنى.

### ● نقطة البداية

كانت نقطة البداية في حياة عريان يوسف سعد السياسية عند جمع  
التوكيلات لسعد زغلول ليكون وكيلاً عن الأمة في المطالبة باستقلالها،  
فقد ذهب في نوفمبر ١٩١٨ مع زميل له في مدرسة الطب إلى مكتب محام  
من أنصار الوفد للتوقيع على التوكيل ، وكانت هذه التوقيعات في حينه  
تمثل تحدياً للاحتلال ، ولذا كانت تتم سرا ، وبعد أن قام بالتوقيع شعر  
بأنه صاحب قضية ، وأن عليه أن يتابع الوكيل (سعد زغلول) الذى يدافع  
عن قضيته ، ولذا أحس عند القبض على وكيل الأمة بأن الإنجليز يقفون  
في سبيل حصول بلاده على استقلالها ، وأن عليه أن يقف فى وجههم ،  
ومن هنا شارك فى الإضراب مع طلبة المدارس العليا.

### ● سلطنة ميت غمر

بعد خروج عريان من السجن سرت شائعة تقول إن الإنجليز  
قاموا بنفى الزملاء المفرج عنهم من المعتقل إلى مالطة ، وفكر عريان

فى مغادرة القاهرة، وبرغم أن المواصلات كانت مقطوعة، والسلطات الإنجليزية قد قطعت حركة الانتقال من القاهرة وإليها، إلا أنه تمكن من الخروج من القاهرة والوصول لميت غمر، وهناك وجد العجب العجاب. لقد أعلنت ميت غمر الاستقلال وجعلت نفسها سلطنة، تماما مثل سلطنة مصر، وتربع على عرش السلطنة الجديدة رجل يسمى أحمد بك عبده. وشكل وزارة من الأعيان، وتحول طلاب المدارس الثانوية والعليا إلى جنود يحرسون البلاد التى استقلت من دون أن يكون لها جيش. لكن المهم أن أهل ميت غمر عرفوا أن ابن بلدهم عريان يوسف سعد قد اعتقل لأسباب وطنية، وتغيرت نظرهم له، واعتبروه بطلا، واستقبلوه بالهتافات والأناشيد. والأهم أنه وجد روحا جديدة فى ميت غمر يصفها بقوله: «علمت أن أول مظاهرة قامت فى ميت غمر كان يقودها محمود حسنى وأندراوس رزق المحاميان، وكانت نار الخلاف بين المسلمين والأقباط لا تزال جذوتها تتقد تحت الرماد الذى خلفته ناره منذ مؤتمر الأقباط الذى عقد فى أسيوط ١٩١٠<sup>(١)</sup>، والمؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى هليوبوليس... أطلقها سعد زغلول فى قلوب المثقفين وعقولهم... وتحركت المظاهرة من أمام ديوان المركز، وإذا هاتف يهتف يحييا الاستقلال وآخر يقول «ياللا عالكنيسة».

وكان قواد المظاهرة يمتطون صهوات الخيل، وكانوا من المسلمين والأقباط، فصاح المسلمون بالهاتف وخاطبوا المظاهرة الهائجة قائلين:

(١) الصحيح: ١٩١١.

إن الحركة وطنية يقوم بها المسلمون والأقباط، وإن أى بادرة تنم عن خلاف بين العنصرين ، أو بين المصريين والأجانب ستكون وبالا على الحركة.... وهتف المتظاهرون للاتحاد وطافت المظاهرة شوارع المدينة لم يقع فيها حادث واحد من الاعتداء أو مجرد التعرض لأحد من الأقباط»<sup>(١)</sup>.

### ● قطع خط السكة الحديد

بعد وصول عريان سعد لميت غمر انعقد مؤتمر خطابي فى المسجد الغمرى خطب فيه شيخ الجامع والقمص يوسف راعى كنيسة الأقباط<sup>(٢)</sup>، وبعد انتهاء الخطبتين صعد الشاب الثائر إلى المنبر وقال للناس: «إن خطر الجنود الإنجليز واحتلالهم للبلدة غير بعيد، وإنهم إن جاءوا فسيكون مجيئهم بالقطارات فيجب أن تتحول المظاهرات إلى عمل يحول دون قدوم الجنود الإنجليز، وذلك بقطع السكة الحديد».

وفى الليل جاء إلى بيت عريان من يناديه، وحين خرج ليرى من السذى يناديه وجد مجموعة من العمال الذين يعملون فى أحد المصانع القريبة تآتى إليه ومعها المعدات اللازمة لخلع قضبان السكة الحديد، ويضعون أنفسهم تحت أمره لتنفيذ اقتراحه، وقاد عريان مجموعة العمال الوطنيين لقطع السكة الحديد ليمنع وصول الآنجليز لبلده. وبالفعل نجح فى خطته إلى حين. حتى وصلت قوة من الجنود النيوزلنديين على ظهور

(١) عريان يوسف سعد: مذكرات عريان يوسف سعد، القاهرة، ٢٠٠٧، ٢٨ - ٢٩.

(٢) يشير هذا إلى أن دور الكنيسة لم يكن قاصرا على القاهرة وحدها، بل امتد أيضا

لأقاليم مصر.

الخييل إلى ميست غمر للقضاء على الثورة، وطلب قائد القوة من المأمور أسماء قادة الثورة لكن المأمور الوطنى لم يقدم له شيئاً، وأصر على أنه لم يحدث شئ. وانتهت قصة سلطنة ميست غمر فى هدوء.

### ● عصابة اليد السوداء

كان لثورة ١٩ تنظيم عسكرى سرى يسميه الناس «اليد السوداء»، وكانت مهمة هذا التنظيم القيام بمهمة اغتيال الإنجليز وأعاونهم الذين يسيرون فى اتجاه مضاد لما يجمع عليه الشعب، وحلم الشاب الثائر عريان سعد أن ينضم لهذا التنظيم بعد عودته من ميست غمر.

فى هذا الوقت كان رئيس وزراء مصر هو محمد سعيد باشا، وقرر اثنان من طلاب المدارس العليا اغتيال هذا الرجل لأنه قبل تشكيل الوزارة بعد نفى سعد، إلا أن الخطة انكشفت، وبرغم هذا لم يلبث سعيد باشا أن تعرض لإلقاء قنبلة أخرى عليه فى الإسكندرية بواسطة طالب أزهرى. والحقيقة أن المصريين فى هذه الفترة كانوا ينظرون لمحاولات اغتيال الخارجين على إجماع الأمة نظرة التقدير والاحترام. ويرون أن الشباب المتحمس الذى يقوم بها أبطال. كما أن الشباب كانوا يرون فى هذه الاغتيالات فدائية، ويستهيون بالسجن والموت ثمناً لها.

وبرغم محاولات الاغتيال فإن التاريخ يذكر لنا أن سعيد باشا ترك رئاسة الوزراء لخلافه مع الإنجليز حول لجنة ملنر التى كانت على وشك أن تزور مصر للوصول إلى اتفاق بعيداً عن سعد زغلول - يكرس الحماية على مصر.

كان من رأى المصريين ألا يوافق أحد من الساسة على تشكيل الوزارة بعد محمد سعيد باشا حتى يعرف الإنجليز أن المصريين يصرون على :  
١ - الإفراج عن سعد.

٢ - ضرورة الموافقة على ذهابه إلى فرنسا للاشتراك في مؤتمر الصلح الذى انعقد هناك بعد الحرب لتسوية الأمور بين الدول المتحاربة.  
٣ - حتمية إنهاء الحماية البريطانية على مصر.

فكر الإنجليز في فكرة جهنمية يكسرون بها تماسك المصريين وعنادهم ، وكانت الفكرة ببساطة هى تولية رئاسة الوزارة لرجل مسيحي ، فإذا قتله أحد الثوار المسلمين أشعلوا فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين كما فعلوا عام ١٩١٠ عند مقتل بطرس باشا غالى. واختاروا لهذه المهمة يوسف وهبة باشا. وأعلن تشكيله للوزارة فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩.

ثارت مصر كلها على يوسف وهبة ، وكان المسيحيون أشد غضبا على هذا الرجل الذى يريد أن يكسر إجماع الأمة ، وأصدر المسيحيون بيانا ضد يوسف وهبة قالوا فيه :

«علمنا أن صاحب المعالي يوسف وهبة باشا قد قبل ، فى الظروف القاسية العصيبة التى تجتازها الأمة ، أن يقوم بتشكيل الوزارة بعد البلاغ الرسمى الأخير الذى تضمن تمسك الإنجليز بالحماية على مصر. وحيث إنه لا يمكن تفسير هذا القول إلا بقبول الحماية والعمل تحت لوائها ومعاونة لجنة ملنر فى تقرير مصير البلاد.

وحيث إنه يخشى أن يعتبر الإنجليز الذين يسعون جهدهم لتشويه حركتنا الوطنية ووحدةنا القومية قبول الرجل لهذا المنصب بمثابة إرضاء

أقباط مصر أو فريق منهم عن وزارته أو عن سياسة هذه الوزارة أو أى سياسة لا ترمى إلى إنالة مصر استقلالها التام.

وحيث إن وهبة باشا لم يمثل فى وقت من الأوقات أمانى الأقباط، ولم يشترك معهم فى شعورهم القومى أيا كان نوعه.

وحيث إنه لا فرق بين مسلم وقبطى، بل المصريون كلهم شخص واحد، ولكن الأقباط يرون أنفسهم مضطرين إلى أن يتقدموا بصفتهم أقباطا لإظهار شعورهم حيال هذا الحادث.

لذلك هم يعلنون براءتهم من كل رجل أو هيئة تقبل الحماية أو تساعد على تعضيدها.

فلكل هذه الأسباب يعلن الموقعون على هذا اشتراكهم مع سائر طبقات الأمة المصرية فى الاحتجاج على تشكيل الوزارة الجديدة<sup>(١)</sup>.

وقد وقع هذا البيان من رجال الدين المسيحى :

- القمص باسيلىوس إبراهيم وكيل البطريركية.

- القمص بطرس عوض الله رئيس الكنيسة البطريركية.

- القمص سيداروس غالى نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس

الروحى.

- القمص سلامة منصور رئيس المجلس الأعلى الملى الفرعى.

- القمص مرقس سرجيوس.

- القمص عبد المسيح ميخائيل رئيس كنيسة الفجالة.

(١) هدى شعراوى: مذكرات هدى شعراوى. القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

ومن قادة الرأى وأعضاء الوفد:

- سينوت بك حنا.
- ويصا بك واصف.
- فهمى بك حنا ويصا.
- أمين بك خياط.
- شكرى بك بطرس.
- سامى أخنوخ فانوس.
- إبراهيم تكلا.
- وليم مكرم عبيد.
- راغب إسكندر.
- عزيز مشرقى.
- الدكتور إبراهيم فهمى المنشاوى باشا.
- الدكتور نجيب إسكندر باشا.

وتذكر هدى شعراوى فى مذكراتها أن الأقباط لم يكتفوا بهذا البيان بل عقدوا اجتماعا «فى الكنيسة المرقسية الكبرى برئاسة القمص باسيلوس وكيل البطريركية، وقد تناوب فيه الخطباء محتجين على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة، ومعبرين عن تضامنهم مع إخوانهم المسلمين. وقد أرسل المجتمعون برقية إلى يوسف باشا محتجين على قبوله الوزارة<sup>(١)</sup>».

(١) مذكرات هدى شعراوى، ٢٠٢.

ولم يختلف موقف السلميين عن موقف إخوانهم المسيحيين ، وخطب أحد الأزهريين حول هذا الموضوع ، واقتبس الآية الكريمة التي تقول : ﴿ أَقْبَلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ١ ﴾<sup>(١)</sup> فى هذه الفترة كان الطالب عريان يوسف قد انضم لجماعة اليد السوداء ، وحين رأى يوسف وهبة باشا يقف ضد إرادة الشعب كله قرر أن يغتاله بيده ، حتى يكون الاغتيال بيد مسيحية فلا يثير فتنة كما حدث عند اغتيال بطرس باشا غالى على يد شاب مسلم .

كان يوسف باشا يسكن فى شارع الشواربى ، وتم رصد حركته ، ومعرفة مواعيده ، وتبين لأعضاء اليد السوداء أنه يتحرك من بيته يوميا بين التاسعة والتاسعة والنصف ، ويمر فى طريق بميدان سليمان باشا (طلعت حرب حاليا) فى طريقه إلى شارع القصر العينى ، لذا اختار عريان أن ينتظره فى مقهى ريش ، ورتب مع أحد الناضورجية أن يراقب اقتراب السيارة من الميدان فيعطيه إشارة بذلك ، وفى يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٩ . حين كان يوسف وهبة باشا فى طريقه إلى مقر رئاسة الوزراء رمى عريان على سيارته قنبلتين ، لكن الرجل لم يمت ، والمهم أن عريان يوسف لم يفر ، بل وقف مكانه ، ليقبضوا عليه حتى يُعرف أن الذى حاول قتله مسيحي منعا لأى لبس أو تأويل . وطلب رئيس الوزراء أن يرى الشاب الذى حاول أن يقتله ، فجاءوا له به ، ودار بينهما حوار دونه عريان فى مذكراته :

(١) مذكرات عريان يوسف سعد ، ص ٩ ، والآية فى سورة يوسف / ٩ .

«ابتدرنى الوزير (يعنى رئيس الوزراء) بقوله : بتعمل كده ليه

يا شاطر؟

- يا سعادة الباشا أنت خرجت على إجماع الأمة.

- دلوقت يا سعادة الباشا وفى الشارع كنت عاوز تقتلنى؟

- ألست باشا؟ إن أدب الحديث يقضى على أن أخاطبك بلقبك،  
ولست أتملكك.

- لم فعلت ذلك؟

- لقد خرجت على الأمة بقبولك تشكيل الوزارة.

- وكيف تحكم بخروجى على الأمة؟

- أرسل لك البطريك وفدا من الأعيان يطلب إليك ألا تؤلف الوزارة  
فأبيت مقابلة الوفد، وأرسلت لك كل الهيئات برقيات تطلب إليك  
التنحى فأبيت، وهذه المظاهرات والإضرابات كلها دليل على أن  
الأمة غير راضية عن تأليف وزارة بعد أن استقالت الوزارة السابقة  
احتجاجا على قدوم لجنة ملنر.

- وما يدريك أننى بقبولى الوزارة لا أعمل ما فيه مصلحة البلاد؟

- لقد ذكرت التلغرافات التى وردت من لندن أن رئيس وزراء

انجلترا أفضى بتصريح فى مجلس العموم عن مهمة لجنة ملنر، قال

فيه إن الوزارة المصرية ستعمل على تحقيق الأمانى البريطانية فى مصر،

والأمانى البريطانية فى مصر ليست هى الأمانى المصرية!

- وإذا لم أولف أنا الوزارة، أما كان غيرى يؤلفها؟

- كان يكون مصيره القتل مثلك.

- ما اسمك؟

- عريان يوسف سعد، وأنا طالب طب، وأنا قبضى أردت أن أغسل  
بدمى ودمك ما وصمت به الأقباط بقبولك للوزارة.  
- خذوه<sup>(١)</sup>.

كان عريان يتوقع أن يعذوبه عذابا شديدا، فأخذ معه قرص سليمانى  
(مادة سامة) ليتخلص من حياته إذا اشتد به العذاب، لكن الضابط الذى  
فتشه عثر عليه وأخذه، وبدأت التحقيقات، ووقف عريان رابط الجأش،  
فهو مستعد للموت، وبذكائه لمح فى عيون كل من حوله الإعجاب  
بما فعله، ولشدة إعجاب المواطنين به انتشرت فى الأسواق صورته  
بيبعها الباعة فى الشوارع.

وفى السجن فوجئ الشاب الوطنى بما لم يكن يتوقع، هاهو  
الباشجان المسلم عبد العال يأتى ليقول له:  
«صباح الخير، شد حيلك. إوعى يكون عندك فكر. إنت هنا فى  
عينينا وربنا يجيب العواقب سليمة!»

ويضيف: «أهل حتننا حلفونى ميت يمين أسلم لهم عليك، وكنت  
رايح اضرب أقدم صاحب لى علشان بيوصينى عليك، هو وطنى أكثر منى؟  
يا سلام! شد حيلك<sup>(٢)</sup>».

(١) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٥٦.

أما موظفو المحكمة فقد كان لقاؤهم يبعث في نفسه الشجاعة،  
وأسندوا له البطولة والفداء والشجاعة والإقدام.

وانتهى التحقيق، وتحدد موعد الجلسة في ١٦ يناير ١٩٢٠، ووكلت  
الأسرة محاميا إنجليزيا، وتطوع للدفاع عن عريان محام مصرى آخر هو  
وهيب بك دوس المحامى، ووقف الشاب الجرىء ثابت الجنان رابط الجأش  
أمام المحكمة يحاورها، ويدير القفشات فى حوارهِ مع القاضى الإنجليزى،  
وانتهت المحاكمة بالحكم على عريان يوسف سعد بالسجن عشر سنوات،  
وفى السجن نرى صورة أخرى من صور الوحدة الوطنية، فمأمور السجن  
إبراهيم بك صفوت يأتى لزيارة السجين الشاب، ويقدم له علبة سجائر فاخرة،  
برغم أن السجائر كما يعلم الجميع ممنوعة فى السجن، ويقول له: «ثق بأن  
كل ضابط فى مصلحة السجن سيبدل لك كل مساعدة، وثق بأنك لن تقضى  
من هذه السنوات العشر شيئا فى السجن»<sup>(١)</sup>.

وبالفعل لم يقض عريان يوسف سعد فى السجن إلا حوالى أربع سنوات،  
فقد أفرج عنه فى فبراير ١٩٢٤ حين شكل سعد باشا وزارته. لكن اسم  
عريان يوسف سعد دخل التاريخ المصرى بحروف من نور لأنه كان حريصا  
على وحدة أبناء وطنه، ورضى أن يضحي بروحه من أجلها.

### سينوت حنا النائب الحر الجرىء

هذه شخصية من طراز فريد، مناضل من الطراز الأول، عرفه التاريخ  
المصرى قبل ثورة ١٩١٩، لكنه تألق وصار نجما فى ظل هذه الثورة من  
خلال دوره فيها وعلاقته بزعيمها.

(١) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٧٢.

ولد سينوت حنا عام ١٨٧٤ لأسرة من أكثر الأسر المسيحية ثراء بأسيوط، وهذا العام من الأعوام الخصبة فى تاريخ مصر فقد ولد فيه مصطفى كامل زعيم الأمة، والخديوى عباس حلمى الثانى الذى حاول أن يصلح ما فعله أبوه (توفيق) ويعيد لمصر استقلالها، وساهم فى إحياء الحركة الوطنية.

كان سينوت أحد ثلاثة أبناء لمع اثنان منهم فى الحياة العامة، أما الأخ الآخر الذى لمع معه فهو بشرى حنا. لكن بشرى كان محافظا فى بدايته حرصا على ثروة الأسرة ومصالحها، حتى شبت ثورة ١٩١٩، وذهب بشرى إلى الفيوم فى زيارة عمل فوجد مظاهرة فى انتظاره للترحيب به، وحمله الناس على أكتافهم لمجرد أنه أخو سينوت. وعندما التقى بأخيه بعد ذلك بأيام قال له:

- كنت على حق يا أخى. لا تتصور كيف يستقبلنى الناس الآن عندما أصل إلى الفيوم. قبل ذلك، وفى أيام الأزمة بيننا وبين إخواننا، كنت أطلب من الحكمدار أن يرسل معى جنديا، وينبه على العمدة بضرورة حراستى. مضى ذلك والحمد لله<sup>(١)</sup>.

لكن دور سينوت حنا الوطنى لم يبدأ مع ثورة ١٩١٩، بل بدأ قبل ذلك بكثير، فهاهو يأتى إلى القاهرة، ويصادق مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وكبار رجال الحركة الوطنية المصرية، ويكتب فى الصحف مناديا بالاستقلال، ويقف ضد كل محاولات التفرقة بين أبناء الوطن الواحد من مسلمين ومسيحيين كما سنرى.

(١) د. حسين مؤنس: دراسات فى ثورة ١٩١٩، القاهرة، ١٩٧٦، ٢٠٩ - ٢١٠.

## ● محاولة إنشاء بنك مصرى

يسجل التاريخ أن أول من حاول إنشاء بنك مصرى هو محمد على باشا، وأن رأس مال هذا البنك كان سبعمائة ألف ريال مصرى، دفعت منه مصر أربعمائة ألف ريال، وشارك اثنان من رجال المال الأوروبيين بالمبلغ الباقي، إلا أن هذا البنك جرى عليه ما جرى على جميع مشروعات محمد على بعد هزيمته من القوى الكبرى، حيث يصمت التاريخ عن ذكر نهاية هذا البنك.

ظهرت الفكرة مرة ثانية على يد أمين شميل فى عهد الخديو إسماعيل، وظهرت محاولة أخرى أثناء الأزمة المالية. بادر المصريون بطرحها لمواجهة الموقف السياسى الذى جد على مصر عام ١٨٨٢، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل مثل المحاولات السابقة.

برغم هذا الفشل إلا أن بعض الأفراد من المصريين حاولوا إقامة بنوك صغيرة فى محافظاتهم لمواجهة السيطرة الأجنبية على الحياة المصرفية فى مصر. ومن هؤلاء كان سينوت حنا وأخوه بشرى. يقول الدكتور رءوف عباس فى تقديمه لكتاب «علاج مصر الاقتصادى» الذى ألفه طلعت حرب ليدعو فيه لإنشاء بنك مصرى:

«جازف بعض المصريين فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالعمل فى ميدان العمل المصرفى، منهم منصور باشا يوسف، والديب، وحفنى بالإسكندرية، وبشرى وسينوت حنا، وعائلة ويصا بأسىوط، وكانوا يقبلون الودائع ويقرضون العملاء، ويحولون الأموال،

قبل قيام البنوك المساهمة الأجنبية، غير أنها عجزت عن منافسة تلك البنوك، وما لبثت أن اختفت من الساحة، وفضل أصحابها الاشتغال بالتجارة<sup>(١)</sup>».

هكذا نرى سينوت وأخاه يحاولان تقديم مشروع وطنى كبير لخدمة الاقتصاد الوطنى، لكنهما يفشلان أمام البنوك المساهمة الأجنبية، لكن برغم الفشل يبقى للأخوين بشرى وسينوت شرف المحاولة.

### ● المؤتمر القبطى

تحدثنا من قبل عن قصة اغتيال بطرس باشا غالى والمؤتمر القبطى، وبيننا كيف استغل الإنجليز الفرصة وحولوا الأمر من حادث اغتيال سياسى إلى حادث اغتيال قام به شاب مسلم ضد رجل مسيحى لتكون المسألة طائفية، وكيف انتهى الأمر بعقد المؤتمر القبطى فى أسيوط لمناقشة مشاكل المسيحيين المصريين، فى ٦ مارس ١٩١١. ونضيف إلى ما سبق أن أخنوخ فانوس وهو أحد أصحاب الفكر المتشدد حاول أن يقفز لرئاسة المؤتمر، لكن العناصر المسيحية المعتدلة سيطرت على الأمر، وكان لابد من رجال عقلاء يقودون السفينة لبر الأمان حتى لا يكون المؤتمر سببا لأية أضرار تصيب الوحدة الوطنية، وهنا برز فى الصورة رجلان هما بشرى حنا (رئيسا للمؤتمر) وأخوه سينوت (سكرتيرا عاما للمؤتمر). وإذا بهما يرفعان علم مصر على مكان المؤتمر، ويبدآن الفعاليات بعزف

(١) د. رؤوف عباس: مقدمة كتاب طلعت حرب (علاج مصر الاقتصادى) القاهرة،

السلام الخديو، وينتهيان بإرسال برقية للخديو عباس حلمى الثانى يؤكدون له فيها ولاء المجتمعين ويقول عبد القادر حمزة الذى حضر المؤتمر: «أعجبنى من خطب المؤتمر أنهم ضربوا فى أقوالهم على نعمة اتحاد المسلمين والأقباط». وفى يوم الافتتاح فى ٦ مارس ١٩١١ حرص المجتمعون للمؤتمر على تأكيد الانتماء الكامل للوحدة الوطنية<sup>(١)</sup>.

ومن اللافت للنظر عند قراءة أحداث هذا المؤتمر:

١ - إنه لما ترددت نظارة الداخلية فى الموافقة على المؤتمر عارضها الحزبان الرئيسان فى ذلك الوقت، وهما: الحزب الوطنى وحزب الأمة.

٢ - إن بعض المسيحيين كان رافضا لفكرة المؤتمر، ومنهم واصف غالى وويصا واصف.

٣ - إن البطريرك كيرلس الخامس لم يكن متحمسا للاشتراك فيه<sup>(٢)</sup>.

٤ - إن الإنجليز كانوا يؤملون أن ينتهى هذا المؤتمر بنتائج تسهم فى تعميق حدة الخلاف بين المسلمين والمسيحيين.

٥ - إن بعض المسيحيين المتشددين هاجموا سينوت بعد المؤتمر وسموه هو وويصا واصف وواصف غالى (اللذين رفضا المؤتمر) بجماعة يهوذا نسبة إلى يهوذا الإسخريوطى الذى خان السيد المسيح<sup>(٣)</sup>.

(١) لمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٨٩.

(٢) د. مصطفى الفقى: الأقباط فى السياسة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٢-٤٣.

ولمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، ص ١٨٩.

(٣) هذا الرجل من مصر، ص ١٨٩.

من خلال ما سبق يمكن أن نتصور الدور الذى قام به بشرى وسينوت حنا لكى يخرجوا بالمؤتمر، بل بالعلاقة بين المسيحيين وإخوانهم فى الوطن، إلى بر الأمان. وهذا الدور الذى لعبه سينوت قبل ثورة ١٩١٩ لا شك أنه مؤشر جيد للدور الذى لعبه أثناء الثورة.

### ● فى الجمعية التشريعية

قبل ١٩٢٣ لم يكن فى مصر برلمان منتخب على أساس حزبى، بل كانت هناك جمعية تشريعية مهمتها سن القوانين، وفى عام ١٩١٣ تم اختيار سينوت حنا عضوا بهذه الجمعية، وكان سعد وكيلها المنتخب، ومن هنا بدأت العلاقة بين الرجلين. لكن ليس معنى هذا أن سعدا لم يلتق بسينوت قبل هذا التاريخ فقد قابله لأول مرة عام ١٩٠٨، حين كان سعد وزيرا للتعليم وقام برحلته للصعيد.

### ● ثم قامت الثورة

انضم سينوت للثورة منذ بدايتها، وحين قرر الوفد السفر إلى باريس لعرض مطالب مصر كان واحدا من أعضاء الوفد، ولم يلبث أن دب الخلاف بين أعضاء الوفد كما أسلفنا، ووقف سينوت إلى جانب سعد دون تردد.

وفى أكتوبر من عام ١٩٢١ قرر سعد القيام برحلة إلى الصعيد، وانزعجت الحكومة انزعاجا شديدا، فشعبية سعد وخطبه التى سيلقيها فى الجماهير ستسبب لها المشاكل، لذلك نبه عبد الخالق ثروت باشا،

رئيس الوزراء ووزير الداخلية، على مديري المديرية بإفشال الرحلة مهما كانت الوسائل، بل أرسل عددا من رجال الإدارة في قطار خاص يسرون مع الرحلة خطوة بخطوة بهدف إفشالها.

وكانت بداية المشاكل في أسيوط، فقد أذاع مديرها بيانا قبل أن يبدأ سعد رحلته هدد فيه الأهالي بإطلاق الرصاص عليهم إذا هم تظاهروا أو هتفوا لسعد، وكان لابد من وقوع المواجهة بين سينوت والمدير، وكتب سينوت مقالا ضمن سلسلة مقالاته التي كان يكتبها بعنوان «الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا» جاء فيه:

«أتتوعدنا أيها المدير بالإعدام؟ أفتظن أن أهالي مديرية أسيوط جبناء يخافون وعيدك وهم يعلمون أنهم لم يرتكبوا إثما يعاقبون عليه؟ اسمع إذن. سأكون أنا أول هاتف للاستقلال التام. سأكون أول منادٍ بصوت عالٍ بسقوط الحماية. فإذا كان لديك رصاص تضرب به من يرتكب جريمة الاستقبال وجريمة هذا الهتاف، فسيكون صدري أمامك يتلقى أول رصاصاتك».

يقول فخرى عبد النور في مذكراته إن هذه الكلمة استفزت حمية أهل الصعيد فأقبلوا يتحدون الحكومة. ولم يكتب سينوت بمقاله، بل ذهب للقاء سعد ومعه فخرى عبد النور ليلحا عليه في الإسراع بالرحلة، حتى وافق سعد. لكن خطة الحكومة نجحت في منع سعد من النزول من سفينته. وعاد الزعيم من رحلته دون أن ينزل إلى البر إلا في تفتيش البكوات بشرى حنا وراغب حنا، أخوى سينوت<sup>(١)</sup>.

(١) مذكرات فخرى عبد النور: ص ٢١١ - ٢٧٠.

## ● فى المنفى

نفى سعد للمرة الثانية فى نهاية عام ١٩٢١، وقبل النفى وجه الإنجليز إنذارا لسعد بعدم إلقاء خطاب، وعدم حضور المجتمعات العامة، أو الكتابة فى الصحف السيارة، أو الاشتغال بالسياسة، وضرورة مغادرة القاهرة والإقامة بالريف، كما أمروا عددا من أصحابه، ومنهم سينوت بالتوجه إلى بلادهم للإقامة بها وعدم التدخل فى الشؤون السياسية<sup>(١)</sup> لكن الجميع رفضوا الإنذار، وحينئذ تفاهم الإنجليز مع زعيمهم. ولندع فخرى عبد النور يروى لحظة وصول الإنذار كما رآها. يقول فخرى فى مذكراته:

«فى هذه اللحظة جاء سينوت بك وهو يضحك... وكان من أغرب المناظر أن كل الذين جاءتهم الكتب (الإنذارات) كانوا باسمين غير مهمومين، فى حين أننا نحن الآخرين كنا عابسين. وكانت أول فكرة لى بعد ذلك أن سألت:

— هل كتاب الرئيس ككل الكتب؟

فأجاب سينوت بك: نعم، ولكنه أوسع منها حجرا.

فقلت: وعلى أى شئ عذمت أنت؟ ومتى تسافر إلى عزبتك؟

فوقف أمامى وقد سطع بريق عينيه وقال بشدة: ماذا؟ أنا

أخضع للأمر؟

ثم رفع يده اليمنى مشيرا بها إشارة الإباء وقال: كلا لن يكون هذا.

سمعت منه هذا الجواب فأعجبتنى شهامته، ولكنى أحسست قلقا

بداخلى فقلت:

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٢٦.

- لا تدع ثورة فكرك الأولى تملكك إلى النهاية.

فما زاد على أن هز رأسه بسرعة هزة الرفض وابتسم وأجاب بتلك الحماسة المتدفقة التي يعرفها فيه كل أصدقائه :

- لا. لا أبدأ. أسافر إلى عزبتي مكرها كما سافرت من قبل. لكنى لا أسافر إليها خاضعا مطيعا<sup>(١)</sup>.

ورفض سينوت الإنذار، وقبل النفي، وظل في المنفى حتى سبتمبر ١٩٢٣، وبرغم قربه من سعد إلا أنه لم يحصل أبدا على أية مناصب، لا في ظل سعد ولا في ظل النحاس، فقد كان الرجل زاهدا في المناصب، واكتفى بأن رأى حلمه يتحقق بوصول الوفد للحكم، وفوزه بالأغلبية البرلمانية.

### ● فداء للنحاس

في عام ١٩٣٠ سعد إسماعيل صدقي للحكم، وتولى تشكيل الوزارة، وكان الرجل يرى أن حكم الوفد يمثل حكم الغوغاء، وأن أمور البلاد يجب ألا تكون في أيدي الغوغاء، بل يجب أن توكل للنخبة، ومن هنا فحين تولى الوزارة رأى أن يغير كل شيء، وكان من أهم الأشياء التي غيرها الدستور، فقد ألغى دستور ١٩٢٣ الذى كان يعتبر أن الأمة مصدر السلطات ووضع بدلا منه دستور ١٩٣٠ الذى يجعل الملك مصدر السلطات، وثارت الدنيا على الرجل، واندلعت المظاهرات، ولم يكف الشباب عن الاحتجاج، وفى ظل هذه الأزمات المشتعلة قرر النحاس أن يقوم بزيارة لقواعده الجماهيرية، واختار مدينة المنصورة ليزورها،

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٢٣.

وكان فى صحبته رفيق النضال سينوت حنا، وركب الرجلان سيارة مكشوفة ليتمكننا من تحية الجماهير.

كان صدقى قد قرر أن يتخلص من النحاس بخطة دنيئة، مؤداها أن ينقض جندى فى الزحام ليطعنه طعنة قاتلة وينتهى الأمر، وأثناء الموكب تقدم الجندى الخائن ليطعن النحاس، وجاءه من حيث لا يراه، وحين اقترب منه رآه سينوت ودون تفكير قرر أن يفدى زعيمه وصديقه وزميله فى الكفاح، فتصدى بجسمه للطعنة، فأصابه الجندى فى ذراعه، ولم يلبث أن رحل سينوت عن دنيانا من أثر الإصابة فى يوليو ١٩٣٠ مفتديا صاحبه بنفسه، ضاربا لنا المثل فى الوفاء بين الأصدقاء، وشركاء الجهاد.

### ● فخرى عبد النور

قبل أن أتحدث عن فخرى عبد النور ودوره فى ثورة ١٩١٩ ينبغى لى أن أذكر أن مذكراته من أهم مصادر التاريخ المصرى المعاصر التى تتحدث عن هذه الثورة. وأنها من أهم المصادر لمن يحب أن يتعرف إلى دور المسيحيين فى الكفاح الوطنى إلى جانب سعد زغلول، ومما يعطى هذه المذكرات قيمة كبرى أن فخرى عبد النور كان أحد زعماء الثورة، وطرفا فى الأحداث، وكثيرا ما يروى الأحداث باعتباره حاضرا، ومشاهدا، وليس باعتباره ناقلا.

وسنعمد فى كتابتنا عن فخرى عبد النور على مذكراته باعتبارها أدق ما كتب عنه. خصوصا وأن ما بها من وقائع لا يختلف مع ما جاء لدى الرافعى مؤرخ الثورة.

ولد فخرى عام ١٩١٩ بجرجا فى يونيو ١٨٨١. وسبب تسميته بهذا الاسم أن محمود باشا فخرى (الذى تقلد وزارة الخارجية فى وزارة توفيق نسيم) كان فى زيارة للصعيد، وجاء لزيارة والده أثناء ولادته فسماه باسمه تكريما لهذه الزيارة واحتفاء بالزائر الكريم<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن الفترة التى ولد فيها فخرى عبد النور كانت من أصعب الفترات التى مرت بمصر، فالاحتلال قد جثم على أنفاس مصر، ونفى زعماء الثورة العربية، وحبس أنفاس الباقين تحت سطوة قوته، وتواطأ الخديو توفيق. لكن شيئا جديدا حدث عام ١٨٩٢ إذ توفى الخديو وتولى بدلا منه ابنه الشاب عباس حلمى الثانى، وكان وطنيا متحمسا، ودخل فى مصادمات مع الإنجليز، واكتشف مصطفى كامل، وشجعه على استكمال دراسته فى فرنسا، وعلى الدعوة للقضية المصرية فى أوروبا، كما أن عباس حلمى الثانى لم يتورع عن تشكيل الجماعات السرية لمقاومة الاحتلال، وكان هو نفسه عضوا بجمعية سرية مع مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وغيرهما.

أشاع وجود عباس حلمى روحا جديدة لدى الشباب، ومن بين هؤلاء الشباب كان فخرى عبد النور. ومن الواضح أن ثروة أسرة عبد النور، ومكانتها الاجتماعية بالصعيد أتاحا له صلة طيبة بالخديو الشاب، لذا نرى عباس حلمى يزوره فى بيته بجرجا عند زيارته للصعيد عام ١٩٠٩، وينعم عليه برتبة التمايز الرفيعة، وعلى أخيه لبيب بالبيكوية من الدرجة الثانية.

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٨٢.

ولا شك أن عزل الخديوى عباس حلمى على يد الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولى كان صدمة للشباب الوطنى، لكن المصريين برغم كل شئ تحملوا الصدمة على أمل أن تمنحهم إنجلترا حريتهم بعد الحرب، وحين راوغت إنجلترا شبت الثورة.

ويذكر التاريخ أن فخرى عبد النور كان واحدا ممن لاحظوا عدم وجود مسيحيين فى التشكيل الأول للوفد، فذهب هو وويصا واصف، وتوفيق أندراوس لطلب ضم مسيحي أو أكثر للوفد. لكن هذا اللقاء لم يكن اللقاء الأول بين فخرى وسعد، فقد قابله بجرجا عام ١٩١٠ حين كان سعد ناظرا للحقانية، وذهب إلى الصعيد فى جولة تفتيشية على المحاكم، فاستقبله فخرى بمنزله بجرجا. ومنذ هذا الحين ارتبط فخرى بسعد بعلاقة طيبة.

### ● فى قيادة الوفد

طلب سعد عند مغادرته مصر ١٩١٩ أن يشكل الوفديون لجنة مركزية للوفد، وبالفعل تشكلت اللجنة برياسة محمود سليمان باشا، وكان وكيلها إبراهيم سعيد باشا، وسكرتيرها: عبد الرحمن فهمى بك، ومن أعضائها فخرى عبد النور. وقد ظلت هذه اللجنة مسؤولة عن شئون الوفد حتى عودة سعد من أوروبا فى ٤ أبريل ١٩٢١<sup>(١)</sup>.

وربما لا يتخيل البعض خطورة العضوية فى هذه اللجنة، فهى اللجنة التى ستقود الكفاح ضد المحتل الإنجليزى فى غيبة سعد، وهى التى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٧٤.

ستربط بين سعد والوطن، والمسؤولة عن توصيل أخبار الوفد أثناء وجوده فى أوروبا للشعب المصرى، والمنوط بها جمع التبرعات للإنفاق منها على نشاط الوفد فى الداخل والخارج، أى أن أعضاء هذه اللجنة باختصار هم العدو الأول للإنجليز، أصحاب السلطة الوحيدة فى مصر فى هذه الفترة. وبرغم هذا فإن فخرى عبد النور لم يتردد فى قبول عضوية اللجنة. بل إنه قام بنفسه بدور ملحوظ فى جمع التبرعات من جرجا، فجمع بالاشتراك مع سلامة بك ميخائيل ألفى جنيه من مواطنى جرجا<sup>(١)</sup>. وهذا مبلغ جسيم بالنسبة لعام ١٩١٩، يساوى الملايين بأسعار اليوم، حيث كانت قيمة الجنية المصرى تساوى جنيها ذهبيا، أو أكثر قليلا. وكان أول من واجه غضب الإنجليز هو عبد الرحمن بك فهمى سكرتير لجنة الوفد، فقد ألقت السلطات الإنجليزية القبض عليه مع آلاف الشباب من طلاب المدارس العالية والمحامين بتهمة تشكيل جمعية للمقاومة باسم «جمعية الانتقام» وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية عليا. عقابا لهم على دورهم فى مقاطعة لجنة ملنر. وبثا للرعب فى نفوس المفاوضين، وشل حركة لجنة الوفد.

وملنر هذا هو وزير المستعمرات البريطانى الذى كان يمثل بريطانيا فى المفاوضات مع الوفد، أما لجنة ملنر فهى اللجنة التى جاءت إلى مصر لتعرض مشروعاً لاستمرار الحكم على مصر، لكن المصريين قاطعوها لأنهم فوضوا سعدا للحديث باسمهم من أجل الاستقلال، ورفضوا أى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٧٩.

محاولة لضرب هذا التفويض، ولهذا لم يجد ملنر عند مجيئه إلى مصر من يفاوضه، وعاد بخفى حنين.

احتج سعد على القبض على رجال الوفد أثناء وجوده في أوروبا، وكلف اثنين من كبار المحامين الإنجليز للدفاع عن المتهمين، وهب عدد كبير من المحامين المصريين للدفاع عن المقبوض عليهم، وفي هذا الخضم كلف الوفد فخرى عبد النور بأن ينوب عن الوفد في حضور جلسات المحاكمة، وبدأ الرجل في تنفيذ ما كلف به.

ولفت حضور صاحبنا نظر رجال البوليس فقبضوا عليه عند انصرافه من المحكمة ذات يوم. وأخذوه إلى سجن يسمى سجن التخشبية، ثم اقتادوه لمقابلة رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة للتحقيق معه، ولم يهتز الرجل أمام الحكمدار الإنجليزي بل قال له بكل ثبات: «إننى مصرى قبل كل شئ، وهؤلاء المتهمون مصريون مثلى أعرف أنهم أرباء فيجب أن أهتم بهم وبمصيرهم. ثم إننى عضو فى لجنة الوفد المركزية، وكبير المتهمين فى القضية سكرتير هذه اللجنة، فكيف لا أهتم به؟ وكيف لا أواظب على حضور الجلسات؟ فضلا عن ذلك فإن بعض المتهمين من أبناء الصعيد الذين تربطنى بهم وبأسرهم صلات قوية<sup>(١)</sup>.

ولم يجد رسل باشا ما يدين الرجل فقرر الإفراج عنه، لكنهم سحبوا منه بطاقة حضور الجلسات فعارض فى ذلك حتى ردها إليه. وحدث أن اختلف شهود الإثبات فظن الإنجليز أن فخرى عبد النور خبأهم

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٨٩.

فى بئته ، فهاجموا البيت وفتشوه ، لكنهم لم يجدوا شئنا . وقام أحد الشهود التابعين للإنجلز باتهام فخرى بأنه أغراه على إنكار الشهادة ، وأنه شرع فى تسميم الشهود الآخرين . لكن من أروع المشاهد فى هذه القضية أن وقف رجلان مسلمان لينفيا عنه الاتهام ، هما الشافعى البنا ومحمد بدر .

### ● فى استقبال الزعيم

وفى مارس ١٩٢١ بدأ رجال الوفد فى مصر الاستعداد لاستقبال سعد باشا بعد أن انتهت مفاوضاته فى أوروبا ، وتم تقسيم العمل ، وكان فخرى عبد النور مسؤولا عن لجنة السكك الحديدية ، فقام بتدبير القطار الذى أقل زعيم الأمة من الإسكندرية إلى القاهرة . ولم تكن هذه مهمة سهلة . فالإنجلز لا يريدون استقبال سعد باعتباره بطلا ، ويعرفون أن هذا القطار الخاص سيتوقف فى كل المحطات ليحيى سعد الحشود التى ستحتشد لتحيته ، لذلك ماطلوا فى إجابة الطلب حتى تمكن فخرى من الوصول إلى عدلى باشا يكن ، رئيس الوزراء ، وخصم سعد العتيد ، وإقناعه بالسماح للوفد باستئجار قطار يقل الزعيم من الإسكندرية إلى القاهرة . ولم يكتف فخرى بهذا بل أعد قطارا آخر لنقل الطلبة من القاهرة إلى الإسكندرية والعودة . وكان هذا الدور من أهم أسباب نجاح استقبال الزعيم .

### ● الطبقة الثالثة

لم يلبث سعد طويلا فى مصر حتى بدأت المشاكل التى انتهت بنفيه هو ومجموعة من أصحابه ، وبعد النفى صعدت الطبقة الثانية من

الوفد لتتولى إدارة الكفاح ، لكن المحتل ألقى القبض على قادة الوفد من أعضاء هذه الطبقة ، وعلى الفور تشكلت قيادة جديدة للوفد تسمى الطبقة الثالثة بقيادة المصرى السعدى بك ، وعضوية السيد حسين القصبى ، والأستاذ محمد نجيب الغرابلى ، وسلامة ميخائيل بك ، والأستاذ مصطفى القاياتى ، وفخرى عبد النور. ولم يخش القادة الجدد مصير زملائهم السابقين من أعضاء الطبقة الثانية ، فأصدروا بيانا ناريا للشعب يقولون فيه «إلى الأمام أيها المصريون».

فى هذه الأثناء كانت آلاف المنشورات موجودة ببيت الأمة ، وتوقع طاهر بك اللوزى أن تقوم السلطات بتفتيش البيت ، وتحدث مع فخرى فى هذا الشأن ، فقرر فخرى أن يفقدى بيت الأمة وسيدته بنفسه ، وأتى بعربة ونقل المنشورات من بيت الأمة إلى بيته بالعباسية ، وفكرت السيدة زوجته فى التخلص من هذه المنشورات ، فأخذتها إلى المطبخ وبدأت فى حرقها ، ومن الواضح أن بيت فخرى كان تحت الرقابة ، فلم تلبث القوات أن هاجمته وقامت بتفتيشه ، وتوجه الضابط المكلف بالتفتيش (اليوزباشى محمد سليمان صدقى) نحو المطبخ للبحث عن المنشورات ، وهناك وجد السيدة الجليلة تقوم بحرقها ، ونظر اليوزباشى للمرأة مندهشا ، وبثبات نادر واصلت المرأة عملها ، ونظرت له قائلة فى جراءة وشجاعة : «أنا أعتقد أن وطنيتك لا تقل عن وطنيتنا ، وإخلاصك لبلادك لا يقل عن إخلاصنا لبلادنا فافعل ما تشاء»<sup>(١)</sup>.

(١) مذكرات فخرى عبد النور ، ص ٣٥٤.

وترك اليوزباشى الوطنى المرأة تكمل حرق المنشورات دون أن ينزل بها أى ضرر.

### ● فى السجن

ولم يطل انتظار فخرى لمواجهة الإنجليز، فقد قبضوا عليه وأودعوه السجن فى ١٤ أغسطس ١٩٢٢، وكانت التهمة الموجهة إليه فى غاية الغرابة، وهى تهمة الاعتداء على مستر براون مدير قسم البساتين بوزارة الزراعة. واقتادوه إلى السجن هو والشيخ مصطفى القاياتى، ومحمد نجيب الغرابلى، أعضاء الطبقة الوفدية الثالثة، بالإضافة إلى النقراشى، وحسن يس، وعبد الستار الباسل، والدكتور نجيب اسكندر.

وما يجعلنا نتعجب من هذا الاتهام هو أن فخرى عبد النور لم يكن عضوا فى التنظيم السرى للوفد الذى كان يتبنى فكرة الكفاح المسلح، لكن يبدو أن الإنجليز كانوا يقصدون القبض على أعضاء الطبقة الثالثة للوفد لوقف مسيرة الجهاد، إلا أن الأسماء التى وصلتهم لأعضاء هذه الطبقة لم تكن دقيقة تماما. وقد ثبت أن الاتهام غير قائم على أسس صحيحة فأفرج عن الجميع. لكن فخرى بالتحديد كان آخر المفرج عنهم. فلم يفرجوا عنه إلا فى ٣ فبراير ١٩٢٣.

ومن الطريف أن نعرف أنه قد طلب إلى فخرى أثناء وجوده فى السجن أن يتوجه بالشكر للجنرال اللنبى عند خروجه، لكن الرجل صاحب النفس الوطنية أبى، وخرج من السجن إلى بيت الأمة قبلة الثوار فى هذا الوقت.

## ● السجن مرة أخرى

بعد حوالى شهر واحد من الإفراج عنه قبضوا عليه مرة ثانية فى ٦ مارس ١٩٢٣ ، وكان معه هذه المرة كل أعضاء الطبقة الثالثة من الوفد، وكالعادة أفرجوا عن الجميع عدا فخرى ، وكانت حجة الإنجليز أنه متهم فى قضية جنائية، وقد زاره فى السجن توفيق دوس وقال له :

- إلى متى يستمر اندفاعك؟ إنى أضمن لك الإفراج عنك بشرط أن تعلن أنك طلقت السياسة.

ورد فخرى بإباء برغم السجن قائلاً: هذا لا يمكن مهما تكن النتائج.

وفى اليوم التالى ذهب إليه مستر ديللينى مراسل شركة رويترز وتحدث إليه فى هذا الشأن فلم يجد أية فائدة. وأصيب فخرى بمرض جلدى نتيجة عدم النظافة فى السجن، وحجز بعنبر المصابين بالأمراض الجلدية، وما أكثرهم فى السجون، فكان هذا مبعثاً شديداً للألم النفسى للرجل ابن الأكاير الذى تعود طوال عمره على النظافة. ووصلت الأمور ذروتها حين لجأ المسئولون عن السجن لتخويله بالقتل، فقد حذره أحد جنود السجن من الخروج من الزنزانة لأن الضابط الإنجليزى انجرام (وهو ضابط إنجليزى فى البوليس المصرى مشهور بالغلظة والقسوة) يرتب لأن يحتك به زكى حنفى المغربى، الشاهد الذى اتهمه من قبل زورا. ثم جاءه انجرام مهدداً، قائلاً:

- أما أن لك أن تقول؟

- ماذا أقول؟

فأخرج ورقة من جيبه وأخذ يتلو ما كتب فيها وهو تصريح صادر من اللورد اللنبي بأن يفعل فيه ما يشاء. هو والشيخ مصطفى القاياتي. فقال له فخرى:

- وماذا تريد؟ ألسنا في السجن؟

وأمسك فخرى بالمصحف والإنجيل، وقال لانجرام: هذان فيهما العبر، وفي تلاوتهما عزاء للمظلومين.

ووصل الأمر إلى أن طرح أحد النواب الإنجليز سؤالاً في مجلس العموم البريطاني عن سبب بقاء فخرى عبد النور في السجن، ولم يجد المسئول في وزارة الخارجية بدا من قول الحقيقة، وهي أن التحقيقات لم تسفر عن إدانة السجين

وأخيراً تم الإفراج عن فخرى في ١١ يونيو ١٩٢٣ بعد حبس دام ثلاثة أشهر وستة أيام.

### ● بعد عودة الزعيم

وواصل فخرى الكفاح بعد الإفراج عنه حتى عاد سعد من منفاه فشكل هيئة وفدية تضم رجالاً من كل الطبقات الوفدية لتقود مسيرة الكفاح. وكان من بين أعضائها فخرى عبد النور.

شهد عام ١٩٢٣ أحداثاً بالغة الأهمية، منها عودة سعد، وصدور الدستور، وإجراء أول انتخابات برلمانية نزيهة، فاز بها الوفد، وكان من بين الفائزين باسم الوفد النائب فخرى عبد النور عن دائرة جرجا.

ولشدة حب فخرى لسعد فقد أسمى أحد أبنائه باسمه ، وقد قابلت هذا الابن الذى ظل وفيًا لذكرى سعد حتى آخر يوم فى حياته. ولمست مدى حبه وإخلاصه بنفسى ، كما لمست إيمانه بمبادئ الوفد وأهمها «الدين لله والوطن للجميع».

وفى ديسمبر ١٩٤٢ توفى فخرى عبد النور وهو يؤدى واجبه فى البرلمان ، بعد حياة حافلة قضاها كلها فى النضال من أجل الوطن.

### ● ويصا واصف محطم السلاسل

وهذا فارس آخر من فرسان الوطنية فى ثورة ١٩١٩ ، إنه ويصا واصف الصعيدى ، ابن طهطا ، المولود فى ١٢ مارس عام ١٨٧٣ لأسرة من أكبر الأسر فى الصعيد.

كان مهتما بالكتابة الصحفية مثل سينوت حنا ، وطالما كتب مقالات نارية يطالب فيها بذهاب الاحتلال الإنجليزى ، دون أن يخشى على ثروته من تهديدات الإنجليز أو القصر.

ولما نشأت الأحزاب فى مصر عام ١٩٠٧ اختار أن ينضم للحزب المتشدد فى الوطنية ، وهو الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ، وعند تشكيل اللجنة الإدارية للحزب عام ١٩٠٨ كان ويصا واصف واحدا من أعضاء هذه اللجنة. إلا أن مصطفى كامل لم يلبث أن رحل ، واختلف أمر الحزب بعده ، فاستقال ويصا من صفوفه ، لكنه لم يبتعد عن الحياة العامة.

وفى عام ١٩١٠ حين اشتد الاحتقان الطائفى فى مصر كان لويصا موقف ناضج نحو هذه الطائفية ، وعندما تقرر عقد المؤتمر القبلى

هاجم انعقاده، ورفض حضوره، كما ذكرنا من قبل حتى لقبه المتشددون بيهودا الإسخريوطي.

### ● مع سعد

وفى ١٩١٩ ضم الوفد ويصا واصف إلى صفوفه باعتباره مترجما فى البداية، وفى باريس رأى أعضاء الوفد أن يكون الرجل واحدا منهم وليس مجرد مترجم، وبعد انضمامه صار مسئولا عن الدعاية مع واصف غالى.

ولا يختلف موقفه عن موقف كل المسيحيين الذين كانوا فى الوفد، فقد اختار سعدا، ورفض ما سُمى بجماعة الاعتدال، وبقي إلى جواره حتى عاد من فرنسا عام ١٩٢١.

بعد إلقاء القبض على سعد ورفاقه ونفيهم سنة ١٩٢١ بقى فى مصر ليشارك فى قيادة الكفاح الوطنى ضد المحتل، وكان بيت الأمة هو المقر الدائم لقيادات الوفد، ورأى واصف غالى أن يصدر بيانا للأمة يشحذ همتها فيه بعد نفي الزعيم، وانتحى لكتابته، فرآه ويصا وعرف ما يكتبه، فقرر أن يوقع معه على البيان، وهنا يرصد فخرى عبد النور لحظة إنسانية جميلة بين الرجلين ننقلها كما هى من مذكرات فخرى عبد النور:

«أعرب الأستاذ ويصا عن رغبته فى توقيعه معه والتضامن فيه. فنصحته الأستاذ واصف غالى بالكف عن ذلك لأنه هو إن فعل ذلك فلأنه ثرى ولا أولاد له. أما الأستاذ ويصا فإن حياته تقوم على عمله

فى المحاماة، وله أولاد هم فى حاجة إليه. إلا أن الأستاذ وىصا أصر على توقيع النداء قائلا إنه لىس أقل منه وطنية<sup>(١)</sup>.

يالهى.. أى الرجلين أروع؟ الرجل الذى يؤثر صدىقه على نفسه، أم الرجل الذى يصر على التضحية برغم حاجة أولاده إليه وحاجته إلى المال؟

بعد نفى الزعيم وصعود وىصا وصحبه لقيادة الوفد قررت السلطات الإنجليزية القبض علىه هو وزملائه، وأرسلت قوة للقبض علىه، وعلمت القوة أن الرجل فى المحكمة المختلطة يتراجع فى إحدى القضايا، فذهبت إلى مبنى المحكمة، واقتحم الضابط المكلف بالمهمة قاعة المحاكمة للقبض علىه وهو يتراجع، لولا أن رئيس المحكمة (المستشار هوربيه) منع القوة من القبض على وىصا، وأمرها بالخروج فورا من قاعة الجلسة إحتراما لقدسية القضاء، ولقن الضابط درسا قاسيا، فخرجت القوة وانتظرتة حتى انتهت الجلسة ثم قبضت علىه<sup>(٢)</sup>.

ولما لم تجد السلطات ما يدين وىصا أو زملاءه أفرجت عنهم فى ٢٧ يناير.

## ● الحكم بالإعدام

وحكم الإنجليز على وىصا واصف بالإعدام كما حكموا على بقية أعضاء الطبقة الأولى من الوفد، لكنهم أبدلوا الحكم كما ذكرنا من قبل

(١) مذكرات فخرى عيد النور، ص ٣٣٥.

(٢) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٤٧.

إلى السجن سبع سنوات وتغريم كل متهم منهم ٥٠٠ جنيه، ثم أفرجت عن الجميع في ١٤ مايو ١٩٢٣. لكن المهم هنا أن ويصا واصف ورفاقه كانوا مستعدين للموت في سبيل الوطن<sup>(١)</sup>.

### ● في البرلمان

عاد سعد من منفاه، وخاض الوفد الانتخابات فاكتملتها، ومن الدروس المهمة في هذه الانتخابات التي أدارها يحيى باشا إبراهيم، رئيس الوزراء ووزير الداخلية، أن يحيى باشا إبراهيم رسب في الانتخابات، لأنه كان رجلا شريفا ونزيها، لم يستخدم سلطته ليزور النتيجة الخاصة به. ومن الدروس المهمة أيضا أن المصريين لم يضعوا في حساباتهم ديانة المرشح، بل نظروا لانتمائه السياسي، ولهذا خاض ويصا واصف الانتخابات في دائرة المطرية، وهي ليست دائرته، فهو صعيدى، لكنه اكتسح خصومه، لأن الشعب المصرى كان يثق أن الوفد ورجاله هم الأقدر على تحقيق آماله القومية. وبعد الفوز علق ويصا واصف على النتيجة فقال: «إننى أمثل فى البرلمان دائرة لا قبلى فيها غير نائبها».

### ● محطم السلاسل

لم تستمر وزارة سعد طويلا، فقد انتهت بمقتل السردار الإنجليزي، وجاء الملك بعده برجل من أسوأ من تولوا الوزارة فى مصر وهو زيور باشا، وعرض زيور على ويصا أن ينضم لوزارته، ولم يضعف ويصا أمام بريق المنصب، لأنه كان رجلا مبادىء، لذلك رفض المنصب. ولم تكن هذه المرة

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٥٥.

الوحيدة التي رفض فيها الرجل منصب الوزير فقد رفضها بعد ذلك حين عرضها عليه الديكتاتور إسماعيل صدقي.

لكن المهم أن الوفد عاد للحكم في عام ١٩٣٠، أي بعد وفاة سعد الذي توفي عام ١٩٢٧. واختار النحاس ويصا واصف ليكون رئيسا لمجلس النواب. إلا أن الأمور سارت في طريق وعر، فلم يلبث الملك فؤاد أن عزل الوزارة النحاسية وجاء بإسماعيل صدقي ليشكل الوزارة الجديدة، وبمجرد أن تولى الوزارة عطل البرلمان، وأحاطه بالحرس، وأغلق أبوابه بالسلاسل، وأعلن التحدي.

لم يكن النحاس ورفاقه من رجال الوفد يخشون السلطات الظالمة أو يهابون الموت في سبيل المبدأ، لذلك حشد النحاس رجاله واقتحم صفوف الحرس غير مبالٍ بالموت، ووصل الجميع إلى باب البرلمان، وتقدم ويصا باعتباره رئيس البرلمان وصاحب الحق الوحيد في فتح البرلمان، وأمر الحرس بتحطيم السلاسل، وفتح البرلمان برغم أنف صدقي، ووقف النحاس باعتباره أحد نواب المجلس المنتخبين فألقى كلمة في غاية الجرأة، وهكذا سجل التاريخ لويصا واصف أنه محطم السلاسل.

## ● خاتمة المطاف

في ٢٧ مايو ١٩٣١ غادر المناضل الكبير ويصا واصف دنيانا وصعدت روحه إلى جوار ربها، وشيعه المصريون في موكب مهيب يليق برجل قضى حياته في السعى من أجل تحرير الوطن ورفعتة. ويروى شهود العيان أن موكب الجنازة كان أوله عند الكنيسة البطرسية في العباسية

وآخره فى ميدان رمسيس. وكانت الناس تهتف به أن يبلغ سعدا فى  
مثواه أن الظلم لا يزال باقيا.

### ● مكرم عبيد

الباب الصحيح للدخول إلى شخصية مكرم عبيد هو قوله :

«نحن مسلمون وطنا ونصارى ديننا ،

اللهم يا رب المسلمين والنصارى ،

اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصارا ،

اللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين».

ففى هذه العبارات الموجزة نرى مكرم المؤمن بالتسامح ، والتعايش  
مع إخوانه وبنى وطنه المسلمين فى وطن واحد ، ونرى مكرم البليغ ،  
القادر على التعبير. ومن خلال هذه العبارات سندخل إلى شخصية  
مكرم عبيد.

### ● من قنا إلى أوروبا

ولد وليم مكرم عبيد فى قنا عام ١٨٨٩ ، وهو عام ميلاد طه حسين  
وعباس محمود العقاد. وكان هذا العام كان موعدا لمجىء هؤلاء العظماء  
إلى الدنيا.

كان والده فلاحا من أثرياء الريف ، ولم يلبث الوالد أن عمل بالمقاولات ،  
وشارك فى إنشاء خط للسكك الحديدية بين نجع حمادى والأقصر ،  
مما زاد ثروته ، ولعل هذا الثراء هو السبب الذى شجع الأب على تعليم

ابنه فى جامعة أكسفورد بانجلترا لدراسة القانون. والقانون فى هذا الوقت هو الباب الملكى للاشتغال بالسياسة، ودخول الوزارة، ورئاسة الوزارة أيضا.

تخرج مكرم فى كلية الحقوق عام ١٩٠٨، ثم شد الرحال من إنجلترا إلى فرنسا فى العام نفسه ليلتحق بجامعة ليون، ليكمل دراساته العليا فى القانون. وأثناء إقامته فى فرنسا درس أيضا علم الآثار المصرية، ودراسة هذا العلم بالتحديد تعطى صاحبها اعتزازا بتاريخه، وبقدرة أجداده على الإبداع، وسبقهم للدينا كلها فى مجالات لا حصر لها، وفى رأى أن اهتمامه بهذه الدراسة فى هذه الفترة يدل على رغبته فى التعرف على روح مصر، ويعكس اهتماما مبكرا بشئون الوطن.

وفى رأى أن أهم ما تعلمه المصريون الذين سافروا إلى أوروبا لم يكن هو العلم الموجود فى الكتب، بل هو ما شاهدوه فى المجتمعات الأوروبية من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد عاد الشيخ رفاعة مثلا ليترجم لنا الدستور الفرنسى، ويكتب عن الليبرالية، والنظام السياسى الفرنسى، وتعليم المرأة، وأهمية الصحف والمجلات فى تكوين الرأى العام. كما عاد على مبارك مؤمنا بأن تكون مصر قطعة من أوروبا، ويشارك صديقه إسماعيل باشا فى تحقيق هذا الحلم. وعاد قاسم أمين ليتحدث عن تحرير المرأة، وعن الحرية الاقتصادية، وهكذا فإن أعظم ما جاءنا من الغرب لم يكن العلم النظرى، بل التأثير بالحياة والتفكير الأوروبىين، والحلم بأن تكون مصر مثل المجتمعات الأوروبية.

ومن حسن حظ مكرم أنه حين سافر إلى أوروبا، وإلى فرنسا بالتحديد، أن الحياة الثقافية كانت مزدهرة، وكانت الاشتراكية تجد رواجاً كبيراً، باعتبارها سبيلاً لتحرير الناس من الفقر والظلم. وكان من الطبيعي أن يتأثر مكرم بهذا الفكر. وبعد حوالي أربعة أعوام عاد مكرم من فرنسا إلى مصر يحمل شهادة عليا في القانون، ويحمل رغبة عارمة في المشاركة للنهوض بوطنه.

### ● بعد العودة

فى عام ١٩١٣ التحق مكرم بوزارة العدل المصرية، وعمل سكرتيراً للوقائع المصرية. ثم انتقل إلى منصب رفيع، حيث عمل سكرتيراً للمستشار البريطانى لوزارة العدل. ومن أفضل من مكرم يقوم بهذا العمل، وهو الذى يجيد الإنجليزية كواحد من أبنائها. إلى جانب معرفته بالفرنسية. وثقافته الواسعة نتيجة قراءته باللغتين؟

ظل مكرم فى هذه الوظيفة من عام ١٩١٥ - ١٩١٩. لكن المنصب الرفيع لم يأسره. ولذا فقد كتب مذكرة شهيرة للرد على المستشار البريطانى، ثم تقدم باستقالة مفتوحة نشرها فى الصحف. وتوجه للعمل فى مدرسة الحقوق. وهذه الاستقالة هى أول تضحية لمكرم فى سبيل وطنه. وما أكثر تضحياته فى هذا السبيل.

### ● مع الزعيم

شبت الثورة ومكرم فى مدرسة الحقوق. ونفى الإنجليز سدا فى مارس ١٩١٩. وبعد الإفراج عنه توجه سعد والوفد إلى فرنسا للمطالبة

بحق مصر فى الحرية . ولم يعد سعد لأرض الوطن إلا فى أبريل ١٩٢١ . وفى القطار المتوجه من الإسكندرية إلى القاهرة تقدم ويصا واصف نحو زعيم الأمة ومعه الشاب مكرم عبيد ليعرف الزعيم بهذا الشاب الذى درس فى أوروبا ، ويجيد أكثر من لغة أوروبية ، ومنذ هذه اللحظة دخل مكرم مرحلة جديدة من مراحل حياته .

يروى لنا التاريخ أن مكرم عبيد بعد وصوله إلى القاهرة فى قطار الزعيم قام بتنظيم احتفال بعودة الزعيم لأرض الوطن ، وغضبت وزارة المعارف على مكرم لهذا السبب ، وقررت أن تعاقبه ، وبالفعل فصلته من وظيفته . ولم يكثر مكرم فمن قبل ترك الوظيفة باختياره ، فلتذهب الوظيفة وليبق الانتماء الوطنى .

قيد مكرم نفسه فى نقابة المحامين ، وافتتح مكتبا للمحاماة . لكنه لم يكن يهدف للربح ، فقد قرر الدفاع عن بنى وطنه الشرفاء الذين يقبض عليهم بسبب الثورة ، لكن الوقت لم يطل بمكرم فقد جد جديد ، إذ قرر سعد أن يستعين به .

لم يكن سعد يهتم بما إذا كان الرجل مسلما أو مسيحيا ، كان يريد رجالا مصريين أكفاء يستطيعون مساعدته فى كفاحه من أجل تحرير الوطن وحسب ، لذلك لم يلبث أن أرسل مكرم إلى أوروبا للوقوف فى وجه عدلى يكن رئيس وزراء مصر الذى أراد أن يسلب من سعد تفويض الأمة له للحديث باسمها ، والتفاوض من أجل الحصول على استقلالها ، فما هو عدلى يكن يرأس وفدا حكوميا ويذهب للتفاوض مع الإنجليز متجاهلا حق سعد .

والمهم أن الأمة التي وكلت سعدا لخصت موقفها من هذا الخلاف في عبارة موجزة تقول: «الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى»، فالأمة لا تثق إلا في سعد، ولا تعترف بغيره زعيما يتحدث باسمها.

قضى مكرم في مهمته ستة أشهر، ونجح فيها نجاحا باهرا. فله علاقات ممتازة مع كثير من الإنجليز، ولغته الإنجليزية وثقافته تسمحان له بالكتابة في كبريات الصحف الإنجليزية، وهو شاب نشط، عاش في إنجلترا طويلا ولديه علم بأساليب الضغط فى المجتمع الإنجليزى، ويعرف كيف يتصل بجماعات الضغط، ويكسبها لصالح قضيته، وبالفعل أقنع الإنجليز أن أى تفاوض مع أى فرد غير زعيم الأمة المفوض لا قيمة له. ويصف الأستاذ فخرى عبد النور فى مذكراته ما قام به مكرم عبيد فى لندن بقوله:

«لم يكد الأستاذ مكرم يستقر بلندن حتى شرع فى نشر دعاية ضخمة، تعريفا للرأى العام البريطانى. فراسل كبريات الصحف الإنجليزية، وألف لجانا من الطلبة المصريين فى مختلف المدن والجامعات، وعقد الاجتماعات العامة التى كان يحضرها الإنجليز والمصريون ليبين لهم حقيقة الحال فى مصر. وندد بما تتخذه الوزارة القائمة من إجراءات تعسفية لخنق إرادة الأمة<sup>(١)</sup>».

لكل هذه الأسباب نجح مكرم فى الاختبار الأول. وحين عاد من لندن فوجىء بما لم يكن يتوقع، فالناس قد خرجت لاستقباله فى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١٧٦.

الميناء باعتباره بطلا شعبيا، وانتظرتة فى الطريق لتحييه، والطلبة قد أعدوا حفلا لتكريمه، والشعراء ألقوا القصائد فى مدحه، لكن المفاجأة الكبرى كانت فى ذهاب سعد باشا زعيم الثورة إلى محطة السكة الحديد بنفسه لاستقباله، وأحس الشاب ابن الثالثة والثلاثين أن مصر لا تصنف الناس على أساس دينهم، بل على أساس دورهم فى خدمة الوطن، والحقيقة أن من أهم ما خرجت به مصر من ثورة ١٩١٩ قاعدة تقول: «الدين لله والوطن للجميع»، وقد صاغ الشاعر هذا المعنى بقوله:

الدين للديانِ جرَّ جلالهُ      لو شاء ربُّك وحد الأديانَ

ومن الجدير بالذكر أن مكرم أعلن منذ لحظة وصوله «أن اسمه الوطنى أصبح «مكرم عبيد». وأنه أسقط منه وليم لأن الإنجليز تعارفوا على التسمية به<sup>(١)</sup>».

### • فى المنفى

لم تطل مدة إقامة مكرم بعد عودته إلى مصر، فالأحداث تطورت بسرعة، لقد عاد مكرم من لندن فى ديسمبر ١٩٢١، وفى ديسمبر تحل ذكرى فرض الحماية على مصر، وفى هذه المناسبة قرر سعد باشا أن يعقد اجتماعا كبيرا يلقي فيه خطبة عن أحوال البلاد، وكان من المقرر أن يشارك مكرم فى هذا الاجتماع ببيان سياسى، وحدد يوم ٢٣ ديسمبر موعدا للاجتماع، ولأن الإنجليز يعلمون شعبية سعد باشا، ويعرفون أن هذا الاجتماع سيضم الألوفا المؤلفين من الجماهير المحبة للزعيم،

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣١٥.

الحاملة بالحرية، فقد أصدرت قرارا بإلغاء الاجتماع يوم ٢٠ ديسمبر، وأرسل الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية إنذارا لسعد يمنعه فيه من إلقاء الخطب، وحضور الاجتماعات، واستقبال الوفود، والكتابة للصحف، وزاد الطين بله بأن أمره بمغادرة القاهرة إلى مسكنه في الريف تحت المراقبة.

وكما أنذر كلايتون سعدا أرسل إلى مجموعة من رجاله الذين يلتفون حوله، وهم مكرم عبيد، سينوت حنا، مصطفى النحاس، فتح الله بركات، عاطف بركات، صادق حنين، جعفر فخري، وأمين عز العرب.

لم يكن سعد وصحبه ممن ترهبهم الإنذارات. وفي اللحظة الحاسمة لاتخاذ القرار تقدم مكرم عبيد ليلقى بالكلمة الحاسمة «لأجواب غير الرفض». ورفض أغلب الأعضاء الإنذار، ومنهم مكرم، ولم يقبل الإنذار سوى ثلاثة أعضاء هم:

- أمين عز العرب الذي قبل السفر إلى عزبة والده بالسنتة.

- صادق حنين بك الذي قبل البقاء بمنزله بالزيتون.

- وجعفر فخري.

وكان عقاب الراضين هو النفى إلى سيثل. كما أصدر النبي أمرا عسكريا يوجب على البنوك والأفراد الامتناع عن صرف أى مبلغ مودع باسم سعد أو باسم الوفد أو أحد أعضائه إلا بإذن كتابي منه<sup>(١)</sup>.

من الواضح أن فترة النفى قربت بين مكرم وسعد، وبينه وبين النحاس، فقد أصيب مكرم بالمalaria فلزمه النحاس فى المستشفى حتى من الله

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٢٧.

عليه بالشفاء، ويبدو أن مكرم والنحاس كانا على وفاق كبير منذ التقيا، إلى حد أنه يروى أن مكرم والنحاس كانا فى بيت الأمة مع الزعيم، وتأخر الوقت بهما، وحينئذ نهض مكرم للعودة إلى بيته «وكانت الثورة على أشدها، وجند الإنجليز يملأون الشوارع.. ونظر سعد، فإذا مصطفى النحاس ينهض للخروج معه.. فقال سعد:

- سيقتلونكما قطعاً.. ابقيا هنا إلى الصباح.

فقال النحاس: أنا ومكرم شئ واحد.. نعيش معا ونموت معا..

وخرجا معا واختفيا فى ظلام الليل<sup>(١)</sup>.

وقد استمرت هذه العلاقة الوطيدة بين الرجلين حتى انشق مكرم على الوفد ١٩٤٢.

لكن من أهم نتائج هذا النفى أنه أتاح لمكرم أن يحفظ القرآن، وأن يتبحر فى العلوم الشرعية على يدي عاطف بركات الذى كان ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى. وهكذا جمع بين الثقافتين العربية والأوروبية.

### ● الجهاد بعد العودة

ظل مكرم فى المنفى حتى عام ١٩٢٣، وحين عاد كانت الدنيا قد تغيرت، فيحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء سعى لإنجاز الدستور، وأصدر قانون الانتخابات، وأجريت أول انتخابات فى مصر، وفاز الوفد بالأغلبية الكاسحة. وصار سعد زغلول بموجبها رئيسا للوزراء. ولم يترك مكرم مكانه إلى جوار سعد برغم أنه لم يفز بأى منصب.

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢٤٤.

وفى عام ١٩٢٤ بدأ سعد فى التفاوض مع حكومة العمال برئاسة رامزى ماكدونالد، وكان من بين أعضاء وفد المفاوضات مكرم عبيد، فسعد لا يجيد الإنجليزية، ولغته الثانية هى الفرنسية، ومكرم خبير بهذه اللغة، ويمكنه تقديم الكثير. لكن المسألة لا تتوقف عند حدود اللغة، فقد تعرف سعد على مواهب مكرم فى الدعاية، وفى الخطابة، وفى التفاوض، كما عرف علاقاته الواسعة بالإنجليز، ولذا صحب مكرم معه.

وبعد العودة من لندن سارت الأمور فى مسار وعر، فقد وقع حادث اغتيال السردار، وقبض الإنجليز على عدد كبير من الوطنيين الذين حامت حولهم الشبهات، وبينهم مكرم عبيد. لكن ثبت أن الاتهام كان ظالما فأفرج عن مكرم، كما أفرج عن الآخرين، وعاد مكرم للجهاد إلى جوار سعد، حتى لقب بابن سعد.

#### ● بعد سعد

رحل سعد عن دنيانا فى أغسطس عام ١٩٢٧، وظهرت فورا مشكلة الزعامة، فمن سيخلف سعدا؟

وبرز فى الساحة فريقان:

- الأول: يضم النحاس ومكرم.

- والثانى: يضم أحمد ماهر والنقراشى.

كان النحاس وماهر يتنافسان على الرئاسة، وفاز بها النحاس، وكان مكرم والنقراشى يتنافسان على منصب السكرتير العام للحزب،

وفاز به مكرم. ومنذ هذه اللحظة بدأ الخلاف بين مكرم والثنائى ماهر/ النقراشى، لكن الخلاف كان أشد بين مكرم والنقراشى، وقد استمر الخلاف بين الرجلين حتى آخر العمر. وكان هذا الخلاف من العوامل التى تسببت فى حدوث الانشقاق الكبير بالوفد، الذى خرج فيه النقراشى ثم ماهر عام ١٠٣٧.

مع أول وزارة شكلها النحاس سعد مكرم لكرسى الوزارة، حيث صار وزيرا للمواصلات، إلا أن عهد الوزارة كان قصيرا، وسرعان ما صرفها الملك بعد حوالى ثلاثة أشهر (٣/١٦ - ٢٥/٦/١٩٢٨)، وعين بدلا منها وزارة محمد باشا محمود، ومحمد محمود لمن لا يعرف هو الرجل الذى اشتهر بـ «صاحب القبضة الحديدية»، فقد كان ديكتاتورا شديدا البأس، وكان الملك يلجأ إليه ليواجه شعبية الوفد الطاغية، ومرة أخرى قرر النحاس أن يرسل مكرم إلى لندن ليفضح ممارسات الوزارة الجديدة.

### ● المجاهد الكبير

فى أغسطس ١٩٢٨ بدأ مكرم يمارس عمله القديم باعتباره مسؤولا عن الدعاية والإعلام للوفد، وانضم إلى مكرم ممثل الوفد الدائم فى لندن (حامد محمود)، وبدأ العمل معا، ويقول الدكتور مصطفى الفقى فى كتابه «الأقباط فى السياسة المصرية» إن مكرم «نظم فور وصوله اجتماعات إعلامية دعائية، وألقى عددا من الخطب ضد نظام محمد محمود الديكتاتورى... وواصل مكرم عبيد نشاطه فى لندن بكتابة مقالات فى الصحف، أو عقد لقاءاته مع الشخصيات البريطانية العامة...

كما أصدر عن الجمعية المصرية البريطانية نشرة سياسية تحت عنوان «مصر»... وقد حقق عبيد نجاحا كبيرا عن طريق اتصالاته الخاصة بعدد من أعضاء البرلمان البريطاني من العمال، فكانت له مجموعة ضغط من خمسة أعضاء، برئاسة مستر كورنورثي، قامت بتوجيه النقد لحكومتهم بسبب موقفها السلبي من تعطيل الدستور المصري وحل البرلمان<sup>(١)</sup>. بعد عودة مكرم من رحلته الناجحة أطلقت عليه الصحف الوفدية لقب «المجاهد الكبير».

لم تكن مهمة مكرم سهلة كما نحكيها الآن بهدوء، فمنذ البداية كان محمد محمود وهو العارف بقدرات مكرم يريد منعه من السفر، وبعد أن سافر كان يتابع أخباره مستاءا، ثم سافر إلى لندن فكانت المواجهة الإعلامية بين المواطن العادي مكرم عبيد وبين رئيس الوزراء محمد محمود، ثم عاد مكرم إلى مصر ليجد أنصار رئيس الوزراء في انتظاره للهجوم عليه، وفي مقابل تلقيب الصحف الوفدية له بالمجاهد الكبير لقبته الصحف المناصرة لمحمد محمود بـ «المجاهد الفاشل الكبير»<sup>(٢)</sup>.

## • رجل الوفد القوي

في عام ١٩٣٠ عاد الوفد من جديد للحكم، وعاد مكرم للوزارة. لكنه هذه المرة كان وزيرا للمالية. والمعروف أن العلاقة بين مكرم والنحاس في هذه الفترة قد بلغت ذروتها، حتى إن البعض يرون أن مكرم كان

(١) الأقباط في السياسة المصرية، ص ٨٠.

(٢) الأقباط في السياسة المصرية، ص ٨٠ - ٨١.

هو المحرك الرئيس للنحاس، وقد سافر النحاس إلى لندن للمفاوضات فصحب معه صديقه الحميم مكرم. لكن عمر الوزارة الوفدية لم يطل هذه المرة أيضا (يناير/ يونيو ١٩٣٠). وجاءت بعدها واحدة من أسوأ الوزارات التي شهدتها مصر، وهى وزارة إسماعيل صدقى (١٩ يونيو ١٩٣٠) وهى الوزارة التى عطلت البرلمان وغيرت الدستور. ومرة أخرى سافر مكرم إلى لندن ليواجه الدكتاتورية الجديدة، إلا أن وزارة صدقى صمدت هذه المرة، واستمر صدقى رئيسا للوزارة حتى عام ١٩٣٣، وحتى بعد رحيله لم يعد الوفد للحكم بل تولت الأمور أحزاب أخرى من الأقليات، ولم يعد الوفد إلا فى مايو ١٩٣٦.

وخلال بعد الوفد عن الحكم جرت مياه كثيرة فى النهر، كان مكرم طرفا رئيسا فيها، فعلى سبيل المثال. وقع خلاف عنيف بين إسماعيل صدقى وطه حسين، لأن طه حسين رفض أن يتولى رئاسة تحرير الصحيفة الخاصة بحزب الشعب الذى يرأسه صدقى، فعاقب صدقى طه حسين بنقله من الجامعة إلى وظيفة أخرى فى الوزارة، ورفض طه حسين تنفيذ النقل، واستخدم رئيس الوزراء كل قدراته فى التنكيل بخصمه، حتى إنه أوعز للشركة التى تؤجر له مسكنه أن تطرده من السكن. ووصل الكاتب العظيم إلى حافة الإفلاس، وحينئذ أقنع مكرم - باعتباره سكرتيرا للوفد - زعيمه مصطفى النحاس بأن يكون طه حسين أحد كتاب مجلة كوكب الشرق الوفدية، ولم يتردد النحاس، وكان موقفا جيدا من مكرم والنحاس معا، يدل على أنهما يرفضان أن يكون طه حسين فريسة سائغة لصدقى وديكتاتوريته.

وقع فى هذه الفترة أيضا حادث مهم، فقد شارك مكرم عبيد وزوجته عايدة فى تزويج رئيس الوفد مصطفى النحاس من امرأة تصغره بأكثر من ثلاثين عاما، هى السيدة زينب الوكيل. وبعد هذه الزيجة بدأت العلاقة تفتت شيئا فشيئا بين الرجلين. حتى أشرفت على الانقطاع عند انشقاق مكرم على الوفد.

لكن برغم بدايات الفتور فقد كان إلى جوار زعيم الوفد حين عقد معاهدة ١٩٣٦ «معاهدة الشرف والاستقلال» ليضيف المزيد من صفحات الكفاح لسجله الوطنى. ولن أسترسل فى الحديث عن مكرم أكثر لأنى لا أريد أن ابتعد كثيرا عن ثورة ١٩١٩، ومن المناسب أن نجعل عام ١٩٣٦ هو نقطة التوقف عند حديثنا عن هذه الثورة. باعتبار أن هذا العام شهد توقيع المعاهدة بين الإنجليز والوفد، ويمكن اعتباره نهاية مرحلة من مراحل الكفاح الوطنى.

لكن قبل أن نضع نقطة النهاية فى حديثنا عن مكرم نريد أن نقف عند نقطة مهمة ساعدته كثيرا فى القيام بدوره، ومكنت له فى قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء. وهى نقطة الخطابة. كما أريد أن أعطى الرجل حقه فى الريادة، إذ كان من أكثر أبناء جيله حماسا لفكرة القومية العربية.

### ● مكرم الخطيب

يكاد يكون هناك إجماع على أن مكرم عبيد هو أعظم خطباء عصره بعد سعد زغلول. ويقال إن الناس كانت تذهب إلى المحاكم حين

يترافع مكرم عبيد لكى يستمتعوا بمرافعاته البليغة، التى تعتبر قطعاً من الأدب الرفيع.

والمعروف أنه أثناء وجوده فى أوروبا درس الموسيقى دراسة جيدة، وظل طوال عمره مهتماً بالعزف والغناء، وكانت تربطه صداقة وثيقة بالمطرب محمد عبد الوهاب، لحد أن عبد الوهاب يقول إنه لم تكن تمر ليلة دون أن يلتقيا.

وأظن أن دراسة الموسيقى بالذات كانت من أهم أسباب نجاح مكرم فى ميدان الخطابة، فهو يعرف بأى طبقة صوتية يبدأ، وكيف يصعد بنبراته دون نشاز، وكيف يلون صوته، وكيف يختار كلماته ذات الجرس الموسيقى، وكيف يحرص على السجع والجناس والطباق فيسحر السامعين. يقول العقاد عن مكرم فى تقديمه لكتاب المكرميات: «لا تخلو خطبه أو فصوله من سجع تتلوه تورية، ويمتزج بهما جناس هنا، وطباق هناك، ولا يزال موفقاً فى اختيارها كل التوفيق حيثما ذهب طوع السليقة فى هذه الخطب والفصول».

ومن أهم الأشياء التى حققت لمكرم الشهرة فى خطابته: حفظه للقرآن، وقدرته على الاستشهاد به فى كل المواقف، ولك أن تتخيل فعل ذلك فى الجمهور المسلم حين يرى مكرم عبيد المسيحى يقتبس آيات القرآن ويتلوها تلاوة صحيحة، بصوت رخيم، وأسلوب مؤثر.

لقد كان مكرم ساحراً فى خطابته، وحفظ لنا التاريخ الكثير من هذه الخطب التى تبين لنا فصاحته، وكانت الخطابة من أهم أسلحته فى جهاده الوطنى العظيم.

## ● مكرم والقومية العربية

بدأت فكرة القومية العربية فى الظهور فى العصر الحديث فى القرن التاسع عشر. وكان أول من تحدث عنها هو إبراهيم باشا بن محمد على ، فقد سئل :

– إلى أى مدى تصل توسعاتك؟

فأجاب : إلى حد ما يتكلم الناس وأتفاهم معهم باللسان العربى . وفى تقرير للمبعوث الفرنسى لدى محمد على أن إبراهيم ذكر بصراحة ووضوح أنه ينبغى إحلل القومية العربية ، وأن يجعل من العرب شعبا ناهضا له كيانه الخاص .

كان هذا أثناء قيام إبراهيم باشا بفتح الشام فى الفترة من ١٨٣١ – ١٨٣٩ ، لكن الفتوحات المصرية للشام سرعان ما ضربت فى مقتل بسبب تأمر الدول الأوروبية ، وعاد إبراهيم باشا بجيشه إلى مصر ليتوارى حلم الوحدة طويلا حتى عام ١٩٥٨ فى عهد جمال عبد الناصر .

وما بين ١٨٣١ و١٩٥٨ تعرضت فكرة القومية العربية لمد وجزر ، تبعا لوضع مصر ، وظروف كفاحها للتحرر من الأتراك والإنجليز . فقد ظهر اتجاه قوى فى بداية القرن العشرين ينادى بأن مصر فرعونية الأصل ، ويجب العودة للجذور ، كما ظهر اتجاه آخر يتبنى فكرة الوحدة الإسلامية تحت مظلة الخلافة العثمانية . ولم يحسم هذا الصراع الفكرى من قريب .

لكن برغم هذا الصراع الفكرى فإن الواقع كان يؤكد أن المصريين لم يبتعدوا أبدا عن أمتهم العربية . كما أن الأمة العربية لم تبتعد عن مصر .

ونجد فى شعر شوقى وحافظ - مثلا- ما يدل على التفاعل مع كل الأحداث الكبرى فى الوطن العربى ، كما نجد أن ما يقع فى مصر من أحداث يؤثر فى الوطن العربى كله ، وحسبنا أن نتذكر أصداء كتاب قاسم أمين عن تحرير المرأة وما أحدثه فى الوطن العربى من معارك لنعرف كيف كانت العلاقة بين مصر والدول العربية فى هذه الفترة . فقد ألف الأدباء والمفكرون ورجال الدين العرب الكتب للدفاع عن أفكار قاسم أمين ، أو الهجوم عليها ، تماما كما حدث فى مصر ، ووصل الحال إلى حد أن الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى الذى كان من أشد المتحمسين لأفكار قاسم أمين سجن بسبب هذه الآراء .

نلاحظ أيضا أن عددا غير قليل من المثقفين والكتاب والفنانين الشوام قد جاءوا إلى مصر وساهموا فى نهضتها ، أو تتلمذ على يد كتابها ومفكرها ، مما جعل الصلة موصولة بين مصر ووطنها العربى . لكن الفكرة خفتت بعض الوقت حين انشغلت مصر فى ثورتها الكبرى ١٩١٩ ، إلا أن التاريخ يسجل لمكرم عبيد أنه كان من المؤمنين بفكرة القومية العربية ، ومن نادوا بها بعد ثورة ١٩١٩ ، فقد قام مكرم برحلة إلى الشام عام ١٩٣١ ، وألقى عدة محاضرات «قرر فيها أنه يعارض الاتجاه القبطى تجاه مسألة القومية العربية وأضاف أن الأقباط لهم جذور مصرية قديمة ، ولكن ذلك لا يتعارض مع عربيتهم» .

ويضيف الدكتور مصطفى الفقى فى كتابه «الأقباط فى السياسة المصرية/ مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية» نقلا عن أنيس صايغ فى كتابه «الفكرة العربية فى مصر» أن مكرم نشر مقالا فى عام ١٩٣٩

ناقش فيه مسألة دولة عربية واحدة وطور أفكاره العربية بشكل ملحوظ، ومما جاء فى هذا المقال: «إن التاريخ العربى سلسلة متصلة بسبب وحدة اللغة، والثقافة العربية، وأن على العرب أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الأوروبيون بأن يقيموا تنظيما يلتقون من خلاله فى ميثاق قومى واحد لبذل الجهود من خلال النضال العربى المشترك من أجل الحرية والاستقلال» كما يذكر الفقى أن مكرم استخدم تعبير «الجامعة العربية» قبل ظهورها إلى الوجود بخمسة أعوام<sup>(١)</sup>.

إن هذا الموقف من القومية العربية يدل دلالة واضحة على أن مكرم عبيد لم يكن قصير النظر، ولم يحبس نفسه داخل المخاوف الضيقة لبعض المسيحيين المصريين الذين كانوا يعتبرون أن القومية العربية مضادة للقومية المصرية.

وبعد، فهذا هو مكرم عبيد، ابن سعد، والمجاهد الكبير، وأحد قادة الثورة الكبار، وسكرتير حزب الوفد (حزب الأغلبية)، والخطيب، والمفكر القومى، لا يمكن لأحد من دارسى تاريخ مصر الحديث أن يتجاهل دوره فى تاريخ الوطن.

### ● دور رجال الدين المسيحى فى ثورة ١٩١٩

(١)

حتى الآن لم يستوف الباحثون الحديث عن دور رجال الدين الإسلامى أو المسيحى فى ثورة ١٩١٩، ولازلنا نتحدث عن دور رجال

(١) الأقباط فى السياسة المصرية. ص ٨٥ - ٨٦.

الدين باعتباره شعورا وطنيا جارفا حرك البعض للمشاركة في الأحداث ، لكنى أعتقد أن هذا الدور كان جزءا من تنظيمات الثورة ، لم يكشف الستار عنه بعد . وقد كتب أحمد أمين فى كتابه «حياتى» ما يعزز رأىى ، فهو يقول : ولما اشتعلت نيران الثورة كنت من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد ، وكان يضم إليه جماعة من الشبان يوزع عليهم الأعمال فاخترنى للإشراف على عمليين : الأول إلقاء الخطب السياسية فى المساجد عقب صلاة الجمعة ، فكنت أجتمع مع بعض الزملاء وأنظم معهم إلقاء هذه الخطب وأوزعهم على المساجد وأعين معهم موضوع مايقولون . والأمر الثانى كتابة المنشورات<sup>(١)</sup> .

ويقول فى موضع آخر : «على أى حال انغمست فى السياسة واشتركت فى المظاهرات وخاصة فى المظاهرات التى ترمى للتقريب بين الأقباط والمسلمين ، فكنت أتلمس المظاهرة ، فأركب عربة وأنا بعمامتى أصطحب فيها قسيسا بملابسه الكهنوتية ونحمل علما فيه الصليب والهلال ونحو ذلك من الأعمال<sup>(٢)</sup> .»

هذه المقتطفات تشير بوضوح إلى أننا أمام تنظيم لرجال الدين الإسلامى يقوم على أمره أحمد أمين ، ويتبع عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد ، وأهم شخصية تنظيمية فيه . كما يشير إلى أن هذا التنظيم كان له أعضاء يجتمعون ويضعون الخطط التى تتضمن أماكن النشاط وتوقيته ، والموضوعات التى

(١) أحمد أمين : حياتى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) حياتى ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

سيتم تناولها. كما أن الهدف هنا واضح تماما حيث يقول كاتبنا أنه يشترك في الأنشطة التي ترمى للتقريب بين الأقباط والمسلمين.

ومادام هناك تنظيم لرجال الدين الإسلامي فلا أظن أن رجال الدين المسيحي لم يكن لهم تنظيم مواز، صحيح أننا لا نعرف شيئا عن هذا التنظيم لكن عدم المعرفة ليس معناه أنه كان غير موجود، بل معناه أننا لم نعرفه بعد.

وقد رأينا أنه حين قبل يوسف وهبة باشا الوزارة وقع عدد من آباء الكنيسة على بيان يستنكرون فيه موقفه. وهم:

القمص باسيلوس إبراهيم وكيل البطريركية.

القمص بطرس عوض الله رئيس الكنيسة البطريركية.

القمص سيداروس غالى نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس الروحي.

القمص سلامة منصور رئيس المجلس الأعلى الملى الفرعى.

القمص سرجيوس.

القمص عبد المسيح ميخائيل رئيس كنيسة الفجالة.

كما رأينا كيف نظم القمص باسيلوس اجتمه ما كبيرا بالكنيسة المرقسية وتولى رئاسته للاحتجاج على قبول يوسف وهبة باشا هذا الأمر، فهل كان هذا مجرد رد فعل لمجموعة غير منظمة من رجال الكنيسة؟

(٢)

سواء أكان هناك تنظيم لمؤازرة الثورة بين رجال الدين المسيحي

أم لا، فلا بد أن نعترف أنه كان هناك تيار وطني قوى داخل الكنيسة الأرثوذكسية بالتحديد، يبدأ من البابا كيرلس الخامس نفسه. وهو رجل وطني أجمع كل الذين كتبوا عنه من مسلمين ومسيحيين على وطنيته واعتزازه بدينه ووطنه بصورة تثير الإعجاب.

هذا الرجل لم يقتصر دوره على ثورة ١٩١٩ فقد كان له دور أيضا في ثورة عرابي، فحين انحاز الخديو توفيق للإنجليز انعقد اجتماع وطني في ٢٩ يوليو ١٨٨٢ تصدره الشيخ محمد عبده، وندد خلاله البطريرك كيرلس الخامس بمواقف توفيق، وانتهى قرار الأمة بعدم تنفيذ أوامر الخديو لخيانته وخروجه عن الشرع والقانون<sup>(١)</sup>.

واستمر الرجل في منصبه محاطا بالوقار، ويروى التاريخ عن تعامله المترفع مع الإنجليز، ما يذكرنا بأفعال الصوفية المسلمين الذين استغنوا عن الدنيا، فَمَا يذُكِرُه عنه الدكتور حسين مؤنس في كتابه «دراسات في ثورة ١٩١٩» أن المعتمد البريطاني زاره يوما فوجده جالسا في مصلاه خاشعا بين يدي ربه، في غرفة هي الغاية في الزهد والتقشف، وكأن المعتمد البريطاني ظن أن ذلك راجع إلى فقر يعانيه، غير عالم أنه في حضرة رجل من أهل الحقيقة كما يقول الصوفية. وعرض عليه أن يطلب باسم الأقباط حماية الملكة فيكتوريا، واستمع الرجل الوقور إلى هذا السيد الضخم الذي ملأت أحلام الإمبراطورية والشر رأسه، ثم نظر إليه وقال:

(١) هذا الرجل من مصر، ص ٤٢٥.

– هذه الملكة فيكتوريا إنسانة.. بشر أقصد؟

– نعم، ولكنها...

– أقصد أنها ستموت يوما ما؟

– ماذا تعنى؟

– أعنى: أرجوك أن تقول لجلالة الملكة إن أقباط مصر ليسوا فى حاجة

إلى حماية بشر هالك، لأنهم فى حماية الحى الذى لا يموت<sup>(١)</sup>.

ومما يذكره عنه لمعى الطيعى فى كتابه «هذا الرجل من مصر» أن

اللورد كتشنر ذهب لزيارته على غير موعد، ففوجىء به الحاجب،

وأسرع للبطريك يلهث قائلاً:

– اللورد. اللورد. اللورد يا أبانا.

– ومن يكون اللورد يا هذا؟ اذهب يا ولد وقل له إن أبانا لا يقابل

أحدا بغير موعد<sup>(٢)</sup>.

هذا الرجل العظيم حين سبت الثورة كان له دوره أيضا، فبعد نشوب

الثورة ظهرت حالة من الفوضى هددت أمن البلاد والعباد، ورأى العقلاء

أن يوجهوا بيانا للأمم يطلبون منها التهدئة ويدعون لعدم الاعتداء على

الأملاك وعدم تخريب المواصلات، ووقع البيان شيخ الأزهر ومفتى الديار

المصرية وببطريك الأقباط وششيخ مشايخ الطرق الصوفية ونقيب الأشراف

ورئيس الوزراء<sup>(٣)</sup>.

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢١٢.

(٢) هذا الرجل من مصر، ص ٤٣١.

(٣) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١١٢.

وحين عاد سعد زغلول من باريس عام ١٩٢١ كان فى استقباله القمص يوحنا إلياس مندوبا عن البطريرك كيرلس الخامس، وحين وصل سعد إلى القاهرة ذهب لزيارته وعانق البطريرك سعدا ودعا له وقال له: - أنت تعبت كثيرا.

فقال سعد باشا: سينسى هذا التعب بنجاح قضيتنا، وأطلب منك الدعاء.

فرد البطريرك قائلا: الله يساعدك ويقويك.

فشكر له سعد باشا بقوله: إن شاء الله ببركتك.

فقال البطريرك: ببركة الله تنجح وتفوز<sup>(١)</sup>.

وبعد أن استقال سعد زغلول من الوزارة عين الملك فؤاد أحمد زيور باشا رئيسا للوزراء وطلب من البطريرك أن يبارك وزارة زيور كما بارك وزارة سعد فقال الرجل الوطنى الشجاع: «إن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار»<sup>(٢)</sup>.

وفى ظنى أنه لولا تشجيع البابا كيرلس الخامس ما رأينا آباء الكنيسة يقومون بهذا الدور الرائع الذى قاموا به، ولا فتحت الكنيسة أبوابها لاستقبال الاجتماعات الوطنية دون تردد.

(٣)

ومن الفرسان الكبار فى ساحة الوطنية القمص سرجيوس.

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١١٠-١١٢.

(٢) جمال بدوى: من نافذة التاريخ، القاهرة، ١٩٩٥.

وسرجيوس صعيدى مثل عظماء الوطنية المسيحيين الكبار :  
مكرم عبيد، وسينوت حنا، وفخرى عبد النور، وغيرهم. ولد عام  
١٨٨٢ بجرجا، وتخرج فى المدرسة الإكليريكية عام ١٩٠٣، وبدأ حياته  
الكنسية كاهنا على ملوى، ومنها تنقل إلى الفيوم والزقازيق حتى حصل  
على رتبة قمص. ثم عمل وكيلا لمطرانية أسيوط حتى عام ١٩١٢ حيث  
أرسله البابا وكيلا لمطرانية الخرطوم<sup>(١)</sup>.

### ● الأسد لن يعدم فريسة

فى الخرطوم أصدر القمص سرجيوس مجلة المنارة المرقسية، وحدد  
هدفها بأنه «دعوة الأقباط والمسلمين إلى التضامن والتآخى وتقويم  
الاعوجاج الذى تأصل فى الأقباط ككنيسة. والضرب على العادات التى  
أضلت الشعب وأفسدت ما ورثناه من الآباء القديسين».

وأثار القمص بمجلته وبآرائه الجريئة السلطات البريطانية الحاكمة  
فقررت أن تتخلص من وجوده فى السودان، ولم يتأثر الرجل  
بقرار المحتل، وقال بشجاعة نادرة للمدير الإنجليزى:

«إننى سواء كنت فى السودان أو فى مصر لن أكف عن النضال وإثارة  
الشعب ضدكم، إلى أن تتحرر بلادى من وجودكم».

إن هذه الجملة تذكرنا بقول جمال الدين الأفغانى حين نفاه الإنجليز  
حيث قال لهم:

(حيثما ذهب الأسد فلن يعدم فريسته).

المهم أن القمص سرجيوس عاد إلى مصر لبدأ صفحة جديدة.

(١) مادلين نادر: موسوعة تاريخ أقباط مصر (طبعة إلكترونية) مادة القمص سرجيوس.

## ● على منبر الأزهر

حين شبت الثورة وجد القمص الثائر أن الوعظ في كنيسته لم يعد كافيا في ظل حاجة الشعب إلى الشحن المعنوي لمواجهة قسوة العدو المحتل، وفضائعه ضد المواطنين الذين أعلنوا التمرد عليه، فخرج إلى ساحة الجهاد، وكان الأزهر هو مركز تجمع الثوار فلم يتردد، وذهب إلى الأزهر مثل كل الوطنيين، وصعد إلى منبر الجامع العتيق خطيبا، وكان قد أوتي فصاحة وبلاغة أهلتة لهز مشاعر السامعين، إلى حد أن الكثيرين شبهوه بعبد الله النديم خطيب الثورة العربية. وتحدث القمص الجليل لغة جديدة، فقد ابتدأ خطابه قائلا «بسم الله» وقال من بين ما قال: إن الدين لله، وإن عبادة الله هي وعبادة الوطن سواء، وإنه في سبيل مصر ينسى أنه قبطي، لأن مصر لا تعرف قبطيا ولا مسلما، وإنما هي تعرف أن الكل أبناءها، وتطلب منهم جميعا أن يقفوا دونها صفا واحدا، ليحموا من العدو الإنجليزي المحتل أرضها<sup>(١)</sup>.

وظل الرجل على هذا المنوال ثلاثة أشهر يواصل الذهاب إلى الأزهر، ويلتقى بالثوار، ويشارك في التفكير معهم، ويلقى الخطب النارية ضد الاحتلال. ومما قاله على منبر الأزهر الشريف:

«أنا مصري أولا، ومصري ثانيا، ومصري ثالثا، وإن الوطن لا يعرف مسلما ولا قبطيا بل مجاهدا دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء».

(١) دراسات في ثورة ١٩١٩.

ولم يقتصر دور القمص على التفاعل مع أشقائه المسلمين داخل الأزهر بل امتد خارجه ، فهاهو يذهب إلى مسجد ابن طولون ، وهو مسجد في منطقة مزدحمة بالسكان ، ومن مراكز الإشعاع الديني لدى المسلمين ، ومن على منبر جامع ابن طولون انطلق صوته منددا بالاحتلال ، مناديا بالحرية لوطنه .

### ● في مواجهة الموت

ولم يكتف القمص سرجيوس بالجوامع ولا بالكنايس بل خرج إلى التجمعات في أكبر الأماكن وأكثرها اتساعا ، ووقف خطيبا لا تحميه من طلقات الإنجليز سوى شجاعته . ولاحظ الرجل أن الإنجليز يتعاملون مع الثوار والمتظاهرين بالقوة المفرطة ، دون خوف ممن يحاسبهم ، ولأن القمص سرجيوس رجل دين مسيحي ، درس الأناجيل وعرف ما فيها فقد رأى أن ما يفعله الإنجليز مع المصريين لا يتفق مع تعاليم المسيح ، التي تقول : «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين<sup>(١)</sup>» .

ولذا فجر قنبلة مدوية في إحدى خطبه إذ قال «إن الإنجليز ليسوا مسيحيين ولا يعرفون الله ، وإنما هم كفار ، لأن الذي يغتصب بلاد الناس ويقتل الشباب الهاتف لوطنه كافر ، وظل يردد كافر حتى أسرع نحوه جندي إنجليزي يريد قتله ، فصاح أحد الواقفين محذرا :

— حاسب يا أبونا حيموتك .

(١) إنجيل متى - الإصحاح الخامس .

ولم يهتز القمص، ولم يتوقف عن إلقاء خطبته، بل قال في شجاعة تليق به: ومتى كنا نحن المصريين نخاف من الموت؟ دعوه يريق دمائي لتروى أرض وطنى التى ارتوت بدماء آلاف الشهداء. دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين». وأمام هذه الشجاعة تراجع الجندى الإنجليزى، لكن صوت القمص لم يتوقف<sup>(١)</sup>.

### ● المنفى

ضاق المستعمر بالقمص، وقرر أن يبعده عن القاهرة، وأن ينفيه فى وطنه، واختار رفح لتكون المنفى. وما أدراك ما رفح فى تلك الأيام البعيدة، وكما نفاه نفى معه الشيخ على الغياتى. وفى رفح جلس الشيخ والقسيس يسترجعان ذكريات النضال، ويتباحثان فى شؤون الوطن، وتبيننا خلال المناقشة أن الإنجليز لا يفرقون بين مسلم ومسيحى مادام مصرياً، وأن أبناء الوطن يجب أن يقفوا معا بصرف النظر عن الديانة للحصول على الحرية. والغريب أن المنفى لم يكسر شوكة القمص أو يحطم معنوياته، فراح فى منفاه يكتب الرسائل النارية للمعتد البريطانى مطالباً فيها بحرية وطنه واستقلاله، واستمر النفى قرابة ثلاثة أشهر، وعاد القمص ليواصل جهاده دون كلل.

وقد مد الله فى عمر القمص سرجيوس حتى شهد جلاء الإنجليز فى الخمسينيات. ورحل عن دنيانا فى سبتمبر عام ١٩٦٤

(١) دراسات فى تاريخ ثورة ١٩١٩، ص ٢٢٧.

عن اثنين وثمانين عاما. لكن ذكراه العطرة لا تزال في الأذهان ممزوجة بكل الامتنان والتقدير لدوره وشجاعته.

### ● مسيحيات فى ثورة ١٩١٩

لابد أن نعترف قبل أن نتحدث عن دور النساء المسيحيات فى ثورة ١٩١٩ أنه يصعب الفصل بين دور المسيحيات وأخواتهن المسلمات. فقد عمل الجميع معا تحت الراية المصرية، وهذا من أروع دروس هذه الثورة.

بدأ دور النساء منذ اللحظة الأولى للثورة، بل يمكن القول إن الحركة النسائية المصرية والحركة الوطنية قد ولدتا معا. وجدير بالذكر هنا أن النساء اللاتي قمن بهذا الدور كن مسلمات ومسيحيات. ومن الصعب الفصل بين دور هؤلاء وأولئك.

### ● مظاهرة النساء

هناك اختلاف بين الكتاب على تاريخ هذه المظاهرة. فهدى شعراوى التى كانت على رأس النساء فى هذا اليوم. وصاحبة المذكرات القيمة التى تؤرخ لأحداث الثورة، تقول إن هذه المظاهرة حدثت يوم ٢٠ مارس ١٩١٩. لكن الدكتور حسين مؤنس يقول فى كتابه «دراسات فى ثورة ١٩١٩» إن هذه المظاهرة كانت يوم ١٦ مارس، وينضم إليه الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «المرأة المصرية بين التطور والتحرر»، والدكتورة إجلال خليفة فى كتابها «الحركة النسائية الحديثة»

وسواء أكان تاريخ هذه المظاهرة هو ١٦ أو ٢٠ فالمهم أنها تمت بعد نفي سعد باشا للمرة الأولى<sup>(١)</sup>.

وضمنت هذه المظاهرات خمسمائة امرأة مصرية، مسلمات ومسيحيات جنبا إلى جنب<sup>(٢)</sup>.

سارت المظاهرة متجهة إلى بيت الأمة، وما إن اقترب النساء من الشارع حتى حاصرهم الجنود الإنجليز، ووجدوا الشوارع مسدودة بمدافع الماكينة، فوقفت المظاهرة مضطرة، تحيط بها صفوف الطلبة، وأرادت هدى شعراوى أن تخترق هذا الحصار متجهة إلى بيت الأمة فصوب جندي إنجليزي بندقيته إليها، لكنها لم تتراجع، فأمسكت بها من الخلف حرم الدكتور حبيب خياط لئلا تمنعها من التقدم، فقالت لها هدى: دعيني أتقدم ليكون لمصر اليوم مس كافيل.

وتراجع الجندي حين سمع اسم المناضلة الإنجليزية التي ضحت بروحها من أجل وطنها. ومرة أخرى حاولت هدى شعراوى اختراق صفوف الجنود، لكن صوت شقيقته المسيحية زوجة الدكتور حبيب خياط قالت لها وهي تشير للطلبة المحيطين بالمظاهرة:

- ما هذا الجنون؟ أتريدون إراقة دماء هؤلاء الأولاد إذا رأوا قطرة من دمك تسيل؟

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٥ ١٨٨، ودراسات في ثورة ١٩١٩، ص ٢٣٣، ود. يونان ليبب رزق: المرأة بين التطور والتحرر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٠٤، ود. إجلال خليفة: الحركة النسائية الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٧٩.

(٢) المرأة بين التطور والتحرر، ص ١٤٠.

«وحينئذ ثابت هدى شعراوى لرشدها. وقررت أن تحافظ على الشباب الذى سيفديها بدمه لو مسها مكروه»<sup>(١)</sup>.

وقد سجل شاعر النيل هذه المناسبة فى إحدى قصائده جاء فيها:

خرج الغوانى يحتجج      ن ورحت أرقب جمعهنه  
فإذا بهن تخذن من      سود الثياب شعارهنه  
فطلعن مثل كواكب      يسطن فى وسط الدُّجْنَه  
وأخذن يجتزن الطرب      ق ودار سعد قصدهنه

...

وإذا بجيش مقبل      والخيل مطلقة الأعنه  
وإذا الجنود سيوفها      قد صوبت لنحورهنه

.....

فليهنأ الجيش الفخو      ر بنصره وبكرهنه

ولم تكتفِ النساء بالتظاهر، بل رفعن عريضة للمعتمد البريطانى يحتججن فيها على نفى سعد باشا والزعماء المصريين، جاء فيها:

«جناب المعتمد

يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية، ويحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة. لا لذنب ارتكبهت سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقا للمبادئ التى فاه بها «ولسن» وقبالتها جميع الدول. محاربة أو محايدة...»

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٨ - ١٩٠.

وعلى هذا الاحتجاج وقعت النساء المصريات، مسيحيات ومسلمات، وهذه أسماء النساء المسيحيات اللاتي وقعن مع أخواتهن المسلمات:

حرم كل من: حنا مسيحة، عزيز مشرقى، نجيب اسكندر، إسكندر مسيحة، روفائيل بغدادى، إدوارد راتب، صليب منقريوس، ميخائيل لبيب. بالإضافة إلى الآنتين: جولبيت صليب، ومارى ميرهم.

هكذا تلاحمت بنات مصر وسيداتهما فى نسيج وطنى واحد يدافع عن حرية الوطن<sup>(١)</sup>.

### ● لجنة الوفد للسيدات

اجتمعت مجموعة من نساء مصر فى ٨ يناير ١٩٢٠ بالكنيسة المرقسية بالقاهرة (والمكان هنا ذو دلالة) لاختيار مجموعة من النساء يتولين قيادة الحركة السياسية النسائية فى مصر، لتكون موازية للحركة التى يقوم بها الرجال بقيادة سعد زغلول. وكانت السيدة إستر ويصا هى الشخصية القيادية التى تدير الأمور، وانتهى الاجتماع باختيار هدى شعراوى رئيسا للجنة، برغم أن هدى لم تكن موجودة، وأن الاجتماع تم فى الكنيسة، وأن إستر ويصا كانت هى التى تدير الاجتماع، فهل رأى أحد مثل هذا السلوك النبيل الذى لا يهتم بغير الوطنية معيارا فى الاختيار. وكما اختار الحاضرات هدى رئيسا اخترن إستر ويصا وكيللا. ولا شك أن شخصية إستر تستحق منا وقفة قبل أن نستمر فى الحديث عن لجنة الوفد للسيدات.

(١) الحركة النسائية الحديثة. ص ١٨١ - ١٨٢.

## ● إستر ويصا

كانت إستر ابنة لرجل صعيدى معروف بتشدده هو أخنوخ فانوس ، لكنها لم تكن أبدا متشددة مثله ، بل آمنت بأن الدين لله والوطن للجميع . وأنها باعتبارها مصرية يجب أن تبذل الجهود الممكنة من أجل تحرير الوطن .

ولدت إستر عام ١٨٩٥ فى محافظة أسيوط، وتخرجت فى مدرسة البنات الأمريكية عام ١٩١٠ . وتزوجت عام ١٩١٣ من فهمى بك ويصا الذى كان وزيرا إبان الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup> . ومن هذا الرجل أخذت اسم ويصا . كانت إستر مهتمة بالتقريب بين الأديان ولذا راحت تدرس التوراة والإنجيل والقرآن بحثا عن نقاط الالتقاء ، وعاشت حياتها كلها مؤمنة بأن الدين لله والوطن للجميع<sup>(٢)</sup> .

انضمت إستر للوفد هى وزوجها ١٩١٩ ، ولعبت دورا قياديا فى لجنة الوفد المركزية للنساء . لكنها لم تكن المسيحية الوحيدة . فقد كان إلى جوارها نساء عديدات مثل روجينه خياط ، التى تولت أمانة صندوق اللجنة ، وبتسى تقلا وغيرهما ممن سنقابلهن على هذه الصفحات .

## ● إضراب الموظفين

من أشكال المقاومة التى مارسها المصريون خلال ثورة ١٩١٩ إضراب الموظفين عن العمل ، وقد قررت النساء أن يكون لهن دور فى

(١) د . محمد رجائى الطحلاوى ، ود . يحيى عبد الحميد : من أعلام أسيوط ، أسيوط ، ص ٩٣ .

(٢) من أعلام أسيوط ، ص ٩٣ .

إنجاح الإضراب، وألقين بأنفسهن فى آتون المعركة. تقول هدى شعراوى فى مذكراتها:

«قمنا نحن السيدات نؤيد هذا الإضراب، ونشجع الموظفين على عدم العودة إلى أعمالهم حتى تصل البلاد إلى نتيجة. وكتبت لجنة الوفد للسيدات إلى رشدى باشا (رئيس الوزراء) خطابا تطلب منه الاستقالة إذا كان عاجزا عن تسيير دفة الأمور. وقد علمت أنه كان عازما على تقديم استقالته. فلما وصله الخطاب قال «النساء أيضا يطلبن استقالتي وهأنذا سأقدمها. فلتطمئن نفوسهن» وقد استقالته فى نفس الليلة.... وبعد استقالته، خشينا أن يتغير الموقف، فأوعزنا إلى كثير من السيدات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع الموظفين المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم... وكانت السيدات اللاتي تولين الوقوف أمام الدواوين لمنع الموظفين من الدخول ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات: «إذا كان أحدكم فى احتياج لرتبه فليأخذ هذه الحلى، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطانى<sup>(١)</sup>».

### ● فى مواجهة ملنر

ومن حسن الحظ أن سجلت هدى شعراوى رئيسة اللجنة المركزية لنساء الوفد أنشطة هذه اللجنة فى مذكراتها، ومن هذه الأنشطة كتابة خطاب مفتوح لأعضاء لجنة ملنر فى ١٦ يناير ١٩٢٠، وربما يقول البعض: «وأى بطولة فى كتابة خطاب لسياسى إنجليزى جاء إلى مصر

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٠ - ١٨١.

في مهمة محددة؟» والحقيقة أن الأمر ليس بهذه البساطة، لأن الشعور القومي كان متأججا، ولطالما اعتقل الإنجليز رجالا لأنهم كتبوا أو خطبوا ضد الاحتلال، أو اتخذوا موقفا مضادا ضد لجنة ملنر، لأن هذه اللجنة باختصار كانت تسعى لتأكيد الحماية التي فرضها الإنجليز على مصر منذ بداية الحرب العالمية الأولى، والتي رفضها المصريون، وتمسكوا بضرورة الاستقلال، وثاروا من أجله، لكل هذا لم تكن المسألة مجرد خطاب، بل كانت دليلا على أن نصف المجتمع المصرى يرفض الحماية ويتمسك بالاستقلال. ومما جاء في هذا الخطاب:

«أولا: ... الأمة المصرية لا تطلب إلا الاستقلال التام. ولا تقبل في تفسير هذا المطلب إلا الصراحة والحق. وإذا كانت هناك مناقشة فمع الوفد وعلى مبدأ الاستقلال التام.

ثانيا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الخالية من الذوق والكياسة التي تعامل بها السيدات في مظاهراتهن الوطنية.

ثالثا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الاستبدادية الأخيرة كنفى رجال مصر العاملين إلى قراهم، ونفى قرياقص ميخائيل أفندى ومعاملته المعاملة السيئة التي لا تتفق مع مبادئ الحرية والعدالة. ونطلب وضع حد لهذه الطرق الاستبدادية التي لا تتفق مع مدنية أمة حرة.

رابعا: نطلب وسنطالب باستقلال بلادنا التام، ولن نرضى غيره بديلا. فلتحيا مصر حرة. وليحيا الاستقلال التام<sup>(١)</sup>.

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٢١٠.

ووقع على هذه المذكرة عشرات النساء من بينهن هؤلاء السيدات والآنسات المسيحيات : حرم حنا مسيحة، حرم عزيز مشرقى، حرم نجيب اسكندر مسيحة، الآنسة جولييت صليب، مدام روفائيل بغدادى، حرم ويصا واصف. حرم صليب منقريوس، حرم ميخائيل لبيب، الآنسة مارى ميرهم<sup>(١)</sup>.

### ● المظاهرة الثانية

ولم يقف دور النساء عند هذا الحد فقد «اجتمع نخبة من السيدات فى ميدان الحلمية الجديدة، وركبن فى نحو عشرين عربة طفن بها فى أنحاء القاهرة، هاتفة لمصر والحرية والاستقلال والوفد المصرى ورئيسه وبسقوط لجنة ملنر، وفى يوم ١٣ من الشهر التالى للاحتجاج على لجنة ملنر، ولنفس الغرض اجتمع عدد عظيم جدا من السيدات المصريات بالكاتدرائية المرقسية لتأييد مقاطعة هذه اللجنة الاستعمارية والاحتجاج على قدمومها لناوأة الأمة فى مطلبها الحق المشروع والإصرار على التمسك باستقلال مصر<sup>(٢)</sup>».

إننا إذن أمام مظاهرة ثانية للنساء، لكنها هذه المرة مظاهرة راكبة.

### ● النساء يعارضن الأحكام العرفية

عاشت مصر فى ظل الاحتلال تحت نير الأحكام العرفية طويلا لتأمين مصالح الإنجليز وقت الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهاء الحرب

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) المرأة بين التطور والتحرر، ص ١٥٤.

لم ترفع انجلترا هذه الأحكام لتتمكن من مواجهة اعتراضات الشعب على استمرار الاحتلال، ولم تقف نساء مصر مكتوفات الأيدي أمام هذه الأحكام الجائرة. وكتبت احتجاجا على استمرار هذه الأحكام فى ١٣ فبراير ١٩٢٠، وأرسلن احتجاجهن إلى رئيس الوزراء، ونشرته فى الصحف. ومما جاء فى هذا الاحتجاج:

«تحتج لجنة الوفد المصرى للسيدات باسم مصر على بقاء الأحكام العرفية واستمرار اعتقال أبناء مصر البررة الذين لا ذنب لهم إلا المطالبة باستقلال بلادهم، كما تحتج على ما يلاقونه من سوء المعاملة<sup>(١)</sup>».

### ● فى مواجهة اللبى

المارشال اللبى هو المعتمد البريطانى فى مصر. وهو أحد كبار القادة العسكريين. وكلنا نعرف طبيعة العسكريين الذين تعودوا على إصدار الأوامر والطاعة العمياء، واللبى كما يقول التاريخ كان هو الحاكم الفعلى للبلاد، يأتى الوزراء ورئيس الوزراء بأمره، ويحسب له الجميع ألف حساب، لكن نساء مصر وجدن الشجاعة للاحتجاج على قرار هذا القائد العسكرى مرهوب الجانب، وكان هذا الاحتجاج بمناسبة نفى سعد زغلول للمرة الثانية فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢١، ومما جاء فيه:

«إذا كنت يا صاحب الفخامة تعتقد فى نفسك القدرة على خنق صوت الأمة المصرية بإبعاد الرجل الذى عهدت إليه الأمة المصرية بأن يتكلم باسمها، فأرجع عن هذا الاعتقاد أيضا. إذ إن القوة تفنى

(١) المرأة بين التطور والتحرر، ص ٢١٤.

والحق يبقى! وسوف نواصل احتجاجنا بلا انقطاع على التدابير الجائرة الظالمة التي تتخذها فخامتك ضدنا، وهي تدابير لن تؤدي إلا إلى إثارة غضب الشعب وغضب الله<sup>(١)</sup>.

إننا أمام لهجة شديدة كتبت بها النساء اللاتي لا تنقصهن الشجاعة احتجاجهن دون خوف؟ بل هي جرأة قد يعجز عنها بعض الرجال؟ لكنهن نساء مصر.

### ● النساء يطالبن عدلى بالاستقالة

عدلى يكن شخصية من أهم الشخصيات المعاصرة لسعد زغلول، وخصمه الأشهر، وقد تولى عدلى الوزارة (من ١٦ مارس ١٩٢١ - ٢٤ ديسمبر ١٩٢١) وذهب لمفاوضة الإنجليز باعتباره رئيسا للحكومة، لكن سعد والوفد رفضوا الانضمام إليه، إذ كان سعد يرى أنه وكيل الأمة الذى يجب أن يتكلم باسمها، والمهم أن المفاوضات بين عدلى والإنجليز التى اشتهرت باسم «مفاوضات عدلى/ كيرزون» قد باءت بالفشل. وعاد الرجل إلى مصر دون أن يوقع أية معاهدات مع الإنجليز، وتوقع الجميع منه أن يبادر بتقديم استقالته، لكنه تباطأ. وحينئذ قرر نساء الوفد أن يطالبنه بتقديم استقالته، وكتبن إليه خطابا مفتوحا بهذه المطالبة برأيهن، ولم يلبث عدلى أن تقدم باستقالته.

### ● الاتحاد النسائى

خرج الاتحاد النسائى المصرى من قلب لجنة الوفد المركزية للسيدات،

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٢٣٩.

ففى مارس ١٩٢٣ تلقت هدى شعراوى دعوة من مؤتمر روما للمشاركة فى فعالياته باعتبارها رئيسا للجنة الوفد المركزية، وفكرت هدى: لماذا لا يكون لدى مصر اتحاد نسائي يتحدث باسم نساؤها، ويعبر عن آمالهن وآلامهن ويتبنى قضاياهن؟ وعلى الفور اتصلت بزميلاتها فى لجنة الوفد المركزية للسيدات، ومن قلب هذه اللجنة الثائرة خرج الاتحاد النسائي المصرى، ضاماً فى عضويته المسلمات والمسيحيات معا. وبعد تشكيل الاتحاد تشكل وفد مصر الذى سيشارك فى المؤتمر، وكانت إستر ويصا من بين المشاركات فى الوفد، إلا أن شيئاً جد فحال دون مشاركتها، وبرغم هذا فمن المناسب أن نرى ما فعلته هدى شعراوى برغم عدم وجود مسيحيات فى الوفد بعد اعتذار إستر، فقد صنعت علماً كبيراً عليه الهلال والصليب يتعانقان ليكون هو العلم المعبر عن مصر. ولعل هذا الفعل الرمزي يبين لنا طابع الوحدة العميق بين نساء مصر مسلمات ومسيحيات أثناء ثورة ١٩١٩.

## ● الدستور والبرلمان

تشكلت لجنة لوضع دستور ١٩٢٣، إلا أن الوفد كان غير راض عن هذه اللجنة، ولذلك وصفها سعد زغلول بأنها «لجنة الأشقياء»، وكما فعل سعد باشا فعلت النساء أيضاً. فقد اعترض بعضهن لعدم تمثيل المرأة فى اللجنة، وبعد وضع الدستور وإجراء الانتخابات أقيم حفل بمناسبة افتتاح البرلمان، إلا أن النساء لم يدعين للمشاركة فى الحفل، لذلك أصدرن بياناً يحتججن فيه على عدم دعوتهن. جاء فيه: «لجنة الوفد المركزية للسيدات تحتج بشدة بصفقتها هيئة تمثل الأمة التى اشتركت

فى الجهاد والتضحفة لاستقلال بلادها ، على رفض طلبها لحضور حفلة افتتاح البرلمان. وترى فى إغفال وزارة الشعب دعوتها فى وقت دعت فىه سيدات أجنبيات عملا لا يلىق بالكرامة».

وكان من التقاليد فى هذا الحفل أن يلقى خطاب يسمى خطاب العرش ، وقد اجتمعت اللجنة بعد خطاب العرش لمناقشته. ورأى أن هذا الخطاب غير واف ، وفىه من الغموض ما يمكن أن يؤوله الخصم لمصلحته ، وطالبت اللجنة نواب الشعب لى يدخلوا التعديلات التالية على خطبة العرش :

١ - النص على تعديل الدستور حتى يكون طبق الدساتير الحديثة ، وأن تذكر فىه حدود الدولة المصرية مع النص على أن السودان جزء منها لا يتجزأ.

٢ - النص على إصلاح القوانين الخاصة بحرية الاجتماعات والصحافة.

٣ - النص على تعديل مواد الدستور الخاصة بالمسئولية الوزارية تعديلا يجعل الأمة صاحبة الحق فى حكم البلاد.

٤ - النص على تقوية الجيش المصرى والقوى الحربية الأخرى مما يكفل المحافظة على سلامة الدولة.

أما التوقيعات على هذا البيان فكانت لكل من : هدى شعراوى ، نعيمة أبو اصبع ، روجينة خياط ، نعمت حجازى ، إستر ويصا ، فايقة رفيق ، ألفت راتب ، عزيزة فوزى ، إحسان أحمد ، فكرية حسنى<sup>(١)</sup>.

(١) مذكرات هدى شعراوى ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

هكذا وقفت النساء المصريات دون تفرقة بينهن لدواع دينية لينقذن خطاب العرش، ويدلين برأيهن فى الأحداث الكبرى التى تمر بوطنهن.

### ● النساء يضعن تصورا لمصر المستقبل

وفى عام ١٩٢٤ وضع نساء مصر العظيمات تصورا لمصر المستقبل كما يحلمن بها، وطبعن هذا التصور ووزعنه ليكون معلوما للجميع، ويضم هذا التصور أمورا تبدو وكأنها كتبت اليوم. مما يدل على أن المجتمع المصرى يتحرك محلك سر فى أشياء كثيرة، ومن ذلك مثلا أنهم يطالبن بإلغاء القوانين الاستثنائية. مثل قانون الأحكام العرفية التى أصيبت به مصر لفترات طويلة، وقانون المطبوعات الذى ينص على إحالة الصحفيين لمحكمة الجنايات. وقانون التجمهر. (هامش موجود وليس له رقم فى النص<sup>(١)</sup>).

كان هذا التصور يضم أربعة أقسام هى:

١ - القسم السياسى.

٢ - تعديل الدستور.

٣ - القسم الاجتماعى.

٤ - القسم النسوى.

وتحت كل قسم من هذه الأقسام جاءت عدة مطالب، وفى القسم السياسى مثلا نجد المطالبة بـ:

(أ) الاستقلال التام لمصر والسودان.

(١) مذكرات هدى شعراوى. ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(ب) التمسك بحياد قنال السويس حسبما تحدده الفرمانات والمعاهدات. على أن يواكب لمصر المحافظة على هذا الحياد كما كانت الحال قبل الاحتلال.

(ت) عدم التقيد بتصرفات انجلترا فى الأراضى المصرية سواء بالنسبة لنفسها أو للدول، وكذلك عدم التقيد بالاتفاقات التى سبقت دون أن تقرها الأمة خصوصا اتفاقية السودان، وتصرفات انجلترا فيه، وتصريح ٢٨ فبراير، وما ينبى عليه من القوانين والإجراءات.

(ث) عدم الاعتراف بما ورد فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ من تحميل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا القديمة، فإن سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها حق ما.

(ج) الامتيازات الأجنبية تحل حلا وديا بين حكومة مصر المستقلة (المطلقة التصرف) من جهة وبين الدول ذوات الشأن من جهة أخرى.

(ح) إذا رأت الأمة وجوب الدخول فى مفاوضة مع انجلترا لاسترداد حقها المغتصب، فليكن بشرط أن تصرح الهيئة المنتخبة لإجراء المفاوضة بقاعدة صريحة، وبشرط أن تقبل انجلترا مبدئيا هذه القاعدة حتى تكون المفاوضة مثمرة ولا تفشل كما حصل مرتين<sup>(١)</sup>.

إننا أمام رؤية سياسية ناضجة، تدل على أن نساء مصر قد صقلتهن تجربة العمل السياسى فى ظل الثورة، فصارت لهن رؤية ثابتة. وكانت لديهن الشجاعة لكى يطرحن هذه الرؤية على الرأى العام دون تردد أو خوف.

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٤٣٨.

## • الوقوف فى وجه الطاغية

والطاغية هنا هو إسماعيل صدقى، الذى ألقى العمل بدستور ١٩٢٣ ووضع دستوراً سئى السمعة هو دستور ١٩٣٠، وحين قام الرجال بالمظاهرات احتجاج على هذا الدستور قمعهم صدقى بكل شدة، ولم ترهب هذه الشدة النساء المصريات فقررن الخروج فى مظاهرة للاحتجاج على هذا العنف المفرط تجاه أبنائهن وأزواجهن وأولادهن، وأشقائهن. ولم يتراجع إسماعيل صدقى عن عناده فى مواجهة النساء ومالهن من حرمة، بل تعامل معهن بعنف أيضاً. وحينئذ نشرت رئيسة الاتحاد النسائى خطاباً مفتوحاً تعبر فيه عن رأى النساء، وزارت هدى شعراوى وستون سيدة فى سياراتهن بيت الأمة، وكان مقصداً لكل المظاهرات الوطنية برغم وفاة سعد. والتقين بصفية زغلول، وهتفن بحياة الزعيمين مصطفى النحاس ومحمد محمود، وبسقوط الانتخابات المزورة، وكان الأمر مفاجأة للداخلية التى حاصرت المظاهرة. وإن كانت قد اضطرت للإفراج عن المظاهرات واحدة بعد الأخرى على أن تسير كل سيارة فى اتجاه مخالف<sup>(١)</sup>.

## • بعيداً عن العمل السياسى

ليس معنى ما سبق أن المرأة المصرية فى وقت الثورة قصرت نشاطها على السياسة وحدها. بل استطاعت أيضاً أن تكون لها رسالة اجتماعية ناضجة قادت المجتمع لمزيد من الاستقرار والتقدم.

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٣٣١.

فى عام ١٩٢٣ - على سبيل المثال - افتتحت النساء المصريات مدارس لتعليم نساء الشعب، مبادئ علم الصحة والتمريض وبعض الصناعات اليدوية، ومحاربة البدع والخرافات، ومعالجة المرضى منهم ومن أطفالهن مجاناً، وكان التعليم مجاناً يتطوع به أعضاء الجمعية (جمعية الاتحاد النسائى).

وفى العام نفسه طلبت النساء من يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء مطلبين:

- ١ - منع مآذونى عقود الزواج عن تحرير أى عقد إلا بعد التثبيت من بلوغ البنت ١٦ عاماً والولد ١٨ عاماً.
  - ٢ - مساواة البنت والولد فى التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية، وهذا هو ما سمح للفتيات بعد سنوات قليلة بدخول الجامعة.
- وقد استجاب رئيس الوزراء للمطلبين فكان ذلك إنجازاً كبيراً للمرأة المصرية.

كما طرحت المرأة أفكاراً فى غاية الأهمية عام ١٩٢٤ ضمن التصور الذى وضعتة النساء لمستقبل مصر، ومن هذه الأفكار:

- ١ - مساواة الجنسين فى التعليم.
- ٢ - الإكثار من المدارس الثانوية للبنات.
- ٣ - تعديل قانون الانتخابات بإشراك النساء مع الرجال فى حق الانتخاب.
- ٤ - المطالبة بقانون يمنع تعدد الزوجات إلا للضرورة.

٥ - عدم الطلاق إلا أمام القاضي.

ولا شك أن معظم هذه الأفكار قد وردت في كتابات قاسم أمين، وتجديد الدعوة إليها يمثل استمرار الدعوة لتحرير المرأة المصرية وصولاً لامرأة جديدة.

هذه صفحة من صفحات جهاد المرأة المصرية أثناء ثورة ١٩١٩ رأينا كيف يصعب فيها فصل دور المرأة المسيحية عن دور شقيقتها المسلمة، مما يظهر لنا مدى التآلف والتعاون والوحدة بين مسلمات هذا الوطن ومسيحياته.



## خاتمة

استعرضنا فى الصفحات الماضية أمرين :

١ - الأساس الدينى الذى وضعه الدين الإسلامى للتعامل مع الأشقاء المسيحيين، وبيننا فيه كيف وصفهم سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين، وأنه أمرنا بألا نكرههم على اتباع الإسلام، وأن نجادلهم بالتى هى أحسن. كما بينا أن إيمان المسلم لا يكتمل إلا إذا آمن بالمسيح عليه السلام والكتاب المنزل عليه.

٢ - التاريخ المشترك ومافيه من صفحات مضيئة، بدأت مع دخول الإسلام واستمرت حتى اليوم.

وقد رأينا خلال هذا الاستعراض كيف أن ثورة ١٩١٩ كانت علاجاً لاحتقان طويل ساد بين المسلمين والمسيحيين، حيث شعر المسيحيون بأنهم شركاء فى الوطن، بلا تمييز، ولا تفرقة. وارتضى المصريون جميعاً شعار: «الدين لله والوطن للجميع».

وفى رأى أن أهم أركان الحياة فى مصر المعاصرة هى:

- النيل.
- الوحدة الوطنية.
- تبنى مشروع للنهضة القومية.

فالنيل هو سر الحياة، والوحدة الوطنية هي سر الاستقرار، والتعاون، والبناء، والتنمية. أما أساس النهضة فهو وجود مشروع قومي يلتف حوله الناس، ويبذلون كل غالٍ ونفيس من أجل تحقيقه. ولا يضير أبداً أن تكون ثمة عقبات أمام مشروع النهضة، فقد كانت العقبات شديدة أمام مشروع محمد على للنهضة، وأمام مشروع عبد الناصر، وأمام السادات في مشروع تحرير الأرض. إلا أن هذه العقبات كانت قوة دفع فجرت ينابيع التحدى في نفوس المصريين كي ينتصروا عليها. وعلينا ونحن ننظر للمستقبل أن نضع هذه الأمور نصب أعيننا. إن الأوضاع وقت كتابة هذه السطور تقول إن مصر تعاني من محاولات القوى المضادة لضربها من خلال ضرب وحدتها الوطنية، والسؤال: هل ستكون مصر قادرة على مواجهة التحدى كما كانت دائماً قادرة على تقديم استجابات مبدعة في وجه كل التحديات التي واجهتها؟ إننى اتق لى قدرة مصر برغم خوفى مما يدور حولى.

وفى ختام هذا الكتاب أرجو أن تقرر وزارة التربية والتعليم مادة جديدة طوال المرحلتين الابتدائية والإعدادية تسمى الوحدة الوطنية، حتى تنشأ الأجيال القادمة واعية بأهمية هذه الوحدة لمصر، وتسعى للمحافظة عليها بالحب والتسامح وقبول الآخر، وتبنى فكرة المواطنة، وأن الدين لله والوطن للجميع.

